أخبار المرقشين

الأكبر والأصغر

الأكبر وشيء عنه

أما الأكبر منهما فاسمه عمرو — وقيل : عَوف — ابن سَعد بن مالك ابن ضُبيعة بن قَيس بن ثَعلبة بن عُكابة بن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل . وإنما لُقِّب المرقِّش لقوله :

الدارُ وحشٌ والرُّسوم كما رقَّش فى ظَهر الأَديم قَلَمْ

وهو أحدُ من قال شعراً فلُقِّب به . وهو أحد المُتيَّمين ، كان يَهوى ابنة عمه أَسماء بنت عَوف بن ضُبيعة .

الأصغر وشيء عنه

وأما الأصغر فهو ابن أخى المُرقِّش الأكبر . وهو رَبيعة بن سُفيان بن سَعد ابن مالك — وقيل : عمرُو بن حَرملة بن سَعد بن مالك — وهو أحد المتيَّمين أيضاً ، كان يهوى فاطمةَ بنت الملك المُنذر ويُشبِّب بها .

من شجاعتهما

وكان للمرقِّشَيْن معاً موقع ، فى بكر بن وائل وحُروبها مع بنى تَغلب ، وبأسٌ وشجاعة ، ونَجدة وتقدُّم فى المَشاهد ، ونِكاية فى العدوّ وحُسن أثر .

عم الأكبر وشيء من شجاعته

وكان عَوف بن مالك بن ضُبيعة ، عمُّ المرقِّش الأكبر ، من فُرسان بكر ابن وائل ، وهو القائل يوم قِضَّة ، وهو أحد الأيام التى كانت فيها الحربُ بين بكر وتغلب : أفى كل يوم فِرار ! أَمَا ومَحْلوفى لا يَمُرُّ بى رجلٌ من بكر بن وائل منهزماً إلا ضربتُه بسيفى . فسُمِّى « البُرَك » يومئذٍ .

أخو الأكبر وشيء من شجاعته

وكان أخوه عمرُو بن مالك من فُرسان بَكر . وهو الذى أَسر مُهلهل بن ربيعة ، أخا كُلَيْب : التقيا فى خَيْلين من غير مُزاحفة ، فى بعض الغارات بين بكر

وتغلب، فى موضع يقال له : نقا الرَّمل. فانهزمت خيلُ مُهلهل، وأدركه عمرُو بن مالك فأسره ، فانطلق به إلى قومه، وهم فى نواحى هَجَر، فأحسن إساره. ومر عليه تاجر يبيع الخمر قَدِم بها من هَجَر ، وكان صديقاً لمُهَلْهِل يَشترى منه الخمر . فأهدى إليه وهو أسير زِقَّ خمر ، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده بكراً وشربوا عند مهلهل فى بيته . وقد أفرد له عمرُو بيتاً يكون فيه . فلما أخذ فيهم الشرابُ تغنّى مُهلهل فيما كان يقوله من الشِّعر وينُوح به على كُليب . فسمع ذلك عمرُو بن مالك ، فقال : إنه لريَّان ، والله لا يَشرب عندى ماءً حتى يَرِدَ رَبِيبٌ — يعنى جملاً كان لعمرو بن مالك ، كان يتناول الدِّهاسَ [1] من أجواف هَجر فيرعى فيها غِبًّا بعد عَشر فى حَمارَّة القيظ — فطلبت رُكْبانُ بنى مالك رَبيباً ، وهم حِراصٌ على ألّا يُقتل مُهلهل ، فلم يقدروا على البعير حتى مات مُهلهل عطشاً . وكان هَبَنَّقَةُ القَيسىّ ، أحد بنى قيس بن ثعلبة، واسمه يزيد بن ثَرْوان، مُحمَّقاً، وهو الذى تَضرب به العرب المَثل فى الحُمق ، يقول : لا يكون لى جَمل أبداً إلّا سميتُه ربيباً . يعنى أن ربيباً مُباركاً لقَتله مُهلهلاً .

تعشقه ابنة عمه وحديث زواجها وموته

وذُكر أن المُرقِّش الأكبر عَشِق ابنة عمِّه أسماء بنت عَوف بن مالك ، وهو البُرَك ، فخطبها إلى أبيها ، فقال : لا أُزوِّجك حتى تُعرَف بالبأس — وهذا قَبل أن تَخرج ربيعة من أرض اليمن — وكان يَعده فيها المَواعيد . ثم انطلق مُرقِّش إلى مَلك من المُلوك ، فكان عنده زماناً ، ومَدحه فأجازه . وأصاب عوفاً زمانٌ شديد ، فأتاه رجلٌ من مُراد، أحد بنى غُطيف، فأَرغبه فى المال ، فزوّجه أسماء على مائة من الإبل ، ثم تنحَّى عن بنى سَعد بن مالك . ورجع مرقِّش . فقال إخوتُه : لا تُخبروه إلا أنها ماتت . فذَبحوا كبشاً وأكلوا لحمه ودَفنوا عِظامه ولفُّوها فى مِلْحَفة ثم قبروها . فلما قَدِم مُرقِّش عليهم أخبروه أنها ماتت ، وأتَوْا به

(١) الدهاس : المكان السهل ليس برمل ولا تراب .

موضعَ القبر ، فنَظر إليه . وكان بعد ذلك يعتاده ويَزُوره . فبينا هو ذاتَ يوم مُضطجع وقد تغطَّى بثوبه ، وابنا أخيه يلعبان بكَعْبين لهما ، إذ اختصما فى كَعب ، فقال أحدُهما : هذا كعبى أعطانيه أبى من الكَبش الذى دفنوه ، وقالوا : إذا جاء مُرقِّش أخبرناه أنه قبر أسماء . فكَشف مُرقِّش عن رأسه ودعا الغُلام ، وكان قد ضَنِىَ ضَنًى شديداً ، فسأله عن الحديث . فأخبره بتَزْويج المُراديّ أسماء . فدعا مُرقِّش وليدةً له ولها زَوج من غُفَيلة ، وكان عَسيفاً[1] لمرقِّش ، فأمرها أن تدعوَ له زوجَها ، فدعتْه ، وكانت له رَواحل ، فأمره بإحضارها ليطلب المُراديّ . فأحضره إياها . فرَكبها ومَضى فى طَلبه ، فمَرِض فى الطريق حتى ما يُحمل إلا معروضاً . وإنهما نزلا كهفاً بأسفل نَجران ، وهى أرض مُراد ، ومع العُقيليّ امرأته وليدةُ مرقِّش ، فسمع مرقِّش زوجَ الوليدة يقول لها : اتركيه فقد هَلك سقماً وهلكنا معه ضُرًّا وجُوعاً . فجعلت الوليدةُ تبكى من ذلك . فقال لها زوجُها : أَظْعِنى[2] فإنّى تاركُك وذاهبٌ . وكان مرقِّش يكتب — كان أبوه دفعه وأخاه حَرملة ، وكانا أحب ولده إليه ، إلى نَصرانىّ من أهل الحيرة فعلَّمهما الخَط — فلما سمع مرقِّش قول العُقيلى كَتب مرقِّش على مُؤخَّرة الرَّحل هذه الأبيات :

يا صاحبىّ تَلَبَّثا لا تَعْجَلا ... إنّ الرَّواح رهينُ ألا تَفْعَلا
يا راكباً إمّا عرضتَ فبلِّغا ... أَنَس بن سَعدٍ إن لقيتَ[3] وحَرْمَلا
لله دَرُّ كُما ودَرُّ أبيكما ... أن يُفلت الغَفَلِيُّ[4] حتى يُقْتلا
من مُبلغُ الأَقْوام أنّ مُرقِّشًا ... أضحى على الأصحاب عِبئاً مُثْقِلا
وكأنما تَرِدُ السِّباعُ بشِلْوه ... إذ غاب جمعُ بنى ضُبَيْعة مَنْهَلا

(١) العسيف : الأجير .
(٢) فى الأغانى : « أطيعينى » .
(٣) أنس وسعد : أخوا المرقش .
(٤) فى المفضليات : « إن أفلت » . والرواية فى الأغانى : « إن أفلت العبدان » .

وانطلق الغفَلى وامرأتُه حتى رجعا إلى أهلهما، فقالا: مات المرقِّش. ونظر حرملةُ إلى الرَّحل فجعل يقلِّبه، فقرأ الأبيات، فدعاها وخوَّفهما وأمرهما أن يَصْدُقاه، ففعلا، فقتلهما. وقد كانا وَصفا له الموضعَ. فركب فى طلب المُرقِّش حتى أتى المكان، فسأل عن خَبره، فعَرف أن مرقِّشاً كان فى الكَهف ولم يزل فيه، حتى إذا هو بغنم تَنزو على الغار الذى هو فيه، فأقبل راعيها إليها، فلما بَصُر به قال له: من أنت؟ وما شأنك؟ فقال له المُرقِّش: أنا رجل من مُراد، فراعى من أنت؟ قال: راعى فلان. فإذا هو راعى زَوج أسماء. فقال له المرقِّش: أتستطيع أن تُكلم أسماء امرأة صاحبك؟ قال: لا، ولا أدنو منها، ولكن تأتينى جاريتُها كلَّ ليلة فأَحلُب لها عَنزاً فتأتيها بلَبنها. فقال له: خُذ خاتمى هذا فإذا حلبتَ فأَلْقه فى اللَّبن، فإنها تعرفه، وإنك ستُصيب به خيراً لم يصبه راعٍ قَطُّ إن أنت فعلت ذلك. فأَخذ الرَّاعى الخاتَم. ولما راحت الجاريةُ بالقَدح وحَلب لها العَنْز طَرح لها الخاتم فيه. فانطلقت به الجاريةُ وتركته بين يديها. فلما سكنت الرَّغوة أخذتْه فشربته. وكذلك كانت تفعل، فقرع الخاتَم ثَنِيَّتها. فأخذتْه واستضاءت بالنار، فعرفتْه. فقالت للجارية: ما هذا؟ فقالت: ما لى به عِلْم. فأَرسلتها إلى مولاها فأَقبل فزعاً، فقال: لم دعوتنى؟ فقالت: أدْع عبدَك راعى غَنمك. فدعاه. فقالت: سَلْه أين وجد هذا الخاتَم؟ فقال: وجدتُه مع رجل فى مَوضع كذا، فقال: أطرحه فى اللَّبن الذى تَشربه أسماء، فإنك تُصيب به خيراً، وما أدرى مَن هو، ولقد تركتُه بآخر رمَق. فقال لها زوجها: وما هذا الخاتَم؟ فقالت: خاتَم مرقِّش، فأَعجل الساعةَ فى طلبه. فركب فرسَه وحَملها على فرس آخر حتى طرقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما، فمات عند أسماء. وقال قبل موته:

سَرى نَحوى[1] خيالٌ من سُلَيمى ... فأرّقنى وأصحابى هُجودُ
فبِتُّ أُدير أمرى كُلَّ حالٍ ... وأذكر أهلَها وهمُ بَعيد
على أن قد سَما طَرَفى لنارٍ ... يُشَبُّ لها بذى الأَرْطَى[2] وَقُود
حوالَيْها مَهاً بِيضُ التَّراقِى ... وآرامٌ وغِزلانٌ رُقود
نواعمُ لا تُعالج بُؤْس عَيشٍ ... أَوانسُ لا تَروحُ[3] ولا تَرُود
يَرُحْن معاً بِطاءِ المشى[4] روداً ... عليهن المَجاسد والبُرود
سَكنَّ ببلدةٍ وسكنتُ أُخرى ... وقُطِّعَتِ المواثقُ والعُهود
فما بالى أَفى ويُخان عَهْدى ... وما بالى أُصاد ولا أُصِيد
ورُبَّ أَسيلة الخدَّين بِكرٍ ... مُنعَّمة لها فرعٌ وجِيد
وذو أُشُرٍ[5] شَتِيتُ النَّبتِ عذبٌ ... نَقِىُّ اللَّون بَرَّاقٌ بَرود
لهوتُ بها زماناً فى شَبابى ... وزارتْها النَّجائب والقَصيد
أُناسٌ كلما أُخلفتُ وصلاً ... عَنانى منهمُ وصلٌ جَديد

الشعر الذى فيه الغناء

والشِّعر الذى فيه الغِناء، وأُفتتح به أبوالفرج أخبار المُرقِّش الأكبر، هو :

النَّشر مسكٌ والوُجوه دنا ... نيرٌ وأطرافُ الأَكُفّ عَنَمْ
والدارُ وحشٌ والرُّسوم كما ... رَقَّش فى ظَهر الأَديم قَلَمْ

فهذه أخبار المُرقِّش الأكبر.

الأصغر وخبره مع فاطمة

فأما خَبر الأصغر، وهو الذى تقدم ذكر نَسبه، وهو ابن أخى الأكبر، وعمّ طَرَفة بن العَبد. وهو أشعر المُرقِّشين وأطولُهما عمراً. وهو الذى عَشِق فاطمة بنت الملك المُنذر.

(١) فى الأغانى : « ليلا » مكان « نحوى » .
(٢) الأرطى : شجر ينبت بالرمل ، عصيا من أصل واحد ، ويطول قدر قامة .
(٣) تروح . من الرواح . وهومع العشى. وترود : تسعى طالبة باحثة . وكأنه جعله فى مقابل الرواح نهاراً . أى لا يعنين أنفسهن مع الإمساء والإصباح .
(٤) رودا : على مهل . وفى الأغانى : « بدا » أى كثيرات لحم الفخذين .
(٥) الأشر : تحزز فى الأسنان .

وخبره معها: أنه كانت فاطمة هذه لها وليدة يقال لها: بنت عَجْلان . وكان لها قصر بكاظمة وعليه حَرس . وكان الحرسُ كُلَّ ليلة ينثُرون التراب حول القَصر الذى فيه فاطمةُ و يَجُرُّون عليه ثوباً حتى يستوى، فلا يدخل عليها إلا ابنةُ عَجلان . فإذا كان الغد بَعث الملكُ بالقَافة فينظرون أثر من دخل عليها و يعودون فيقولون : لم نَر إلى ابنة عَجلان .

وكان لبنت عَجْلان كلَّ عُشية رجل ممن يُعجبها يبيت معها . وكان مرقِّش ترْعية [1] لا يفارق إبله. فأقام يوماً، وترَك إبله ظمأى . وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم شَعراً . وكانت فاطمة بنت المنذر تَقْعد فوق القصر تنظر إلى الناس . فجاء مرقِّش فبات عند ابنة العَجلان ، حتى إذا كان الغد تجرّدت عند مولاتها ، فقالت : ما هذا بفَخِذيك ؟ فإذا نُكَتٌ كأنها آثار السِّياط من شدة حَفْزه إياها عند الجِماع . فقالت : آثار رجل بات معى الليلة . وكانت فاطمةُ قالت لها : قد رأيتُ رجلاً جميلاً راح نحونا العشيةَ لم أره قبل ذلك . قالت : فإنه فتًى قَعد عن إبله وكان يرعاها ، وهو الفتى الجميلُ الذى رأيتِه ، وهو الذى بات معى الليلةَ فأثر فىَّ هذه الآثار . فقالت لها فاطمة : إذا كان غدٌ وأتاك فقدِّمى له مِجمراً ومُريه أن يجلس عليه وأعطيه سِواكاً ، فإن استاك به أو رَدَّه فلا خَير عنده ، و إن قعد على المِجمر أو رَدَّه فلا خير عنده . فأتته بالمِجمر فقالت : اجلس عليه . فأبى وقال : أَدْنيه منِّى، فدخَّن لحيته وجُمَّته وأبى أن يَقعد عليه ، وأخذ السواك فقَطع رأسه واستاك به . فأتت ابنةُ عجلان فاطمةَ بنت الملك فأخبرتْها بما صنع . فازدادتْ به عجباً وقالت: ائتنى به. فتعلَّقت به كما كانت تتعلّق. فمضى معها وحملتْه على ظَهرها، وحزمت على بطنها بثوب وأدخلتْه [2] إليها . فبات معها . فلما أصبح الملك بعث

(١) الترعية ، مثلثة التاء : الذى يحسن رعية الإبل .

(٢) الرواية فى الأغانى : « حملت بنت عجلان مرقشاً على ظهرها و حزمته إلى بطنها بثوب » .

بالقَافة فنظروا ، ثم عادوا إليه فقالوا : رأينا آثار ابنة العجلان وهى مُثقلة . فمكث كذلك حيناً يدخُل إليها . وكان عمرو بن جَناب بن عوف بن مالك يَرى ما يُفعل ولا يعرف مَذْهبه . فقال له : ألم تكن عاهدْتنى عهداً ألّا تكتمنى شيئاً ولا أكتُمك ولا نتكاذب ؟ فأخبره مُرقِّش الخبرَ . فقال له : لا أرضى عنك ولا أُكلمك أبداً أو تُدْخلَنى عليها ، وحلف على ذلك . فانطلق مرقِّش إلى المكان الذى كان يواعد فيه ابنة عَجلان ، فأجلسه فيه وانصرف ، وأخبره كيف يصنع . وكانا مُتشابهيْن ، غير أن عمراً كان أشعر . فأتتْه ابنة عَجلان فاحتملتْه وأدخلته إليها . وصَنع ما أمره به مرقِّش . فلما أراد مُباشرتها وجدتْ مسّ شعر فَخذيه واستنكرته، فإذا هو يُرْعَد . فدفعتْ صدرَه وقالت : قَبحَ الله سرًّا عند المُعَيْدىّ ! ودعت بنت عَجلان ، فذهبتْ به . فلما رأى صاحبُه أنه قد أسرع الكرّة ولم يلبث إلّا قليلاً ، علم أنه قد افتضح . فعضّ على إصبعه فقطعها . ثم انطلق إلى أهله وترك إبله التى كان مُقيما فيها ، حياءً مما صنع ، وقال فى ذلك قصيدةً أولُها :

أَلَا يا سَلْمَى لا صُرْمَ لِي اليومَ فاطمَا ولا أبداً ما دام وصلُكِ دائمَا

ومنها :

صحا قلبُه عنها على أنّ ذِكرةً إذا خَطرتْ دارتْ به الأرضُ قائما

ومنها :

وإنى لأَستحيي فُطَيمةَ جائعًا خَمِيصاً وأستحيي فُطيمة طاعِما
وإنى وإن كَلَّت قَلُوصى لراجمٌ بها وبنَفسى يا فُطَيم المَراجما

ومنها :

أفاطمَ لو أنّ النِّساء بِبلدةٍ وأنتِ بأُخرى لابتغيتُك هائما
متى يشأ ذو الودّ يَصْرِم خليلَه ويَغْضَبْ عليه لا محالةَ ظالما

فمن يلق خيراً يحمد الناسُ أمرَه ومن يَغو لا يَعدم على الغيّ لائما
وآلى جَنابٌ حِلفَةً فأطعتُه فنفسَك وَلِّى اللَّوْمَ إن كنتَ[1] نادما
ألم تر أنّ المرء يَجْذم كفَّه ويَجْشَم من لَوْم الصَّديق[2] المَجاشِما
أمن حُلُم أصبحتَ تنكُت[3] واجماً وقد تَعْتَرى الأحلامُ مَن كان نائما

ثم ذكر أبو الفرج وقعة «دُولاب» لتعلّقها بشعر فيه الغِناء، فنذكرها مُختصرة.

---

(١) فى بعض أصول الأغانى: «لائما».
(٢) يجذم: يقطع. ويجشم: يركب المكروه.
(٣) الواجم: الحزين المغتم، وهو كثيراً ما ينكت الأرض ويخطط فيها بعود.

وقعة دولاب

الخوارج

لما حَكَّم أميرُ المُؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومعاوية بن أبى سُفيان الحَكَمين : أبا موسى الأشعرىّ وعمرو بن العاص، فارق علىًّا رضى الله عنه جماعةٌ من أصحابه وأكفروه بسبب التَّحكيم ، وقالوا : إنه حكَّم الرجال فى دِين الله ، ولا حَكَم إلا الله عزّ وجلّ . فدعاهم ووَعدهم ووَعظهم وأقام عليهم الحُجة . فأَصرّوا على ضَلالهم وعِنادهم. إلا فِرقة عَرفت الحق ورجعت إليه . ثم قاتل علىّ رضى الله عنه من أَصَرّ على الخرُوج عليه بالنَّهروان فأبادهم. وهذه الفرقة هى المارقة الذين أخبر عنهم رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنهم يَمْرقون من الدّين كما يَمرق السهمُ من الرَّمية . ومَذْهبهم تولِّى أبى بكر وعُمر رضى الله عنهما خاصةً ، والتَّبرى من عثمان وعلىّ ، وطلحة ، والزُّبير ، وعائشة ، ومعاوية ، وأهل الشام والعراق ، وكُل من لم يَقُل بقولهم . ويُكفِّرون أهل دار الإسلام ، ويَستبيحون الدماء والأموال . وكانوا مع ذلك يُظهرون التعبُّد والتقشُّف . وسمَّوا أنفسهم الشّراة ظنًّا منهم أنهم قد شَرَوْا أنفسهم لله وبذلوها فى اتّباع مَرضاته. ومن هؤلاء القوم: عبدُ الرحمن بن مُلجم ، قاتل علىّ رضى الله عنه .

نافع بن الأزرق والحرب بينه وبين أهل البصرة

ولما أفضت الخلافةُ إلى مُعاوية صار يَخرج عليه منهم الطائفةُ بعد الطائفة . وظهر فيهم بعد موت معاوية وأبنه يزيد ، رجلٌ يقال له : نافع بن الأزرق ، فأحدث فيهم مقالةً لم تكن قبل ذلك ، وأباح قَتْل أطفال المُخالفين ، واحتجّ بقوله تعالى: (وَلاَ يَلِدُوا إلا فَاجِراً كَفَّاراً) . واتبعتْه طائفةٌ منهم يقال لهم الأزارقة، نِسبةً إليه . وخالفه فى ذلك سائر الخوارج وتفرّقوا فرقًا كثيرة ، تُذكر فى كُتب المقالات .

وكان أهل العراق لما مات يزيد بن معاوية قد أمّروا على أنفسهم عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب المعروف ببَبَّة [1]. فقصد نافعُ بن الأزرق ومن معه من الخوارج العراق وبَذلوا السيف وقتلوا الرجال والنّساء والولدان. وكانوا كلما وطئوا بلداً فعلوا به هذا، فإن أجابهم أهلُ ذلك البلد إلى الدُّخول فى ملّتهم رفعوا السيف عنهم ووضعوا عليهم الجباية. فاشتدت شوكتُهم، وعظُم أمرهم. فحرّض الأحنفُ بن قيس الناسَ بالبصرة على حربهم، وطَلب منه عبدُ الله بن الحارث أن يؤمِّر أميراً يَنهر الناس على فعالهم. فأمّر مُسلم بن عُبيس بن كُريز بن ربيعةَ، واجتمع إليه عشرة آلاف، وكان فارساً شجاعاً ديِّنا. فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس وقال: إنى ما خرجتُ لامتيار ذهب ولا فضة، وإنى لأحارب قوماً إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلّا سُيوفهم أو رماحهم، فمن كانت نيّته الجهاد فَلْينهض، ومن أحب الحياة فَلْيرجع. فرجع نَفر يسير ومَضى الباقون معه. وذلك فى سنة خمس وستين. فلما صاروا بدُولاب، وهى قَرية من قُرى الأهواز بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ، خَرج إليهم نافع، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسّرت الرِّماح، وعُقِرت الخيل، وكثُرت الجراح والقَتلى، وتَضاربوا بالسُّيوف والعَمَد. فقُتل فى المَعركة ابن عُبيس أمير جيش البَصرة، ونافع بن الأزرق أمير الخوارج. وكانت الخوارج يومئذٍ نحو ستمائة رجل. فقام بأهل البصرة الربيعُ بن عمرو الغُدانى، وقام بأمر الخوارج عبدُ الله بن بِشر بن الماحُوز — وكان الرَّبيع يقال له: الأجذم، لأنّ يده كانت أُصيبت بكابُل مع عبد الرحمن بن سَمُرة — فبقيت الحربُ بينهم نَيِّفاً وعشرين يوماً، فأصبح الرَّبيع بن عمرو ذاتَ يومٍ فقال لأصحابه: إنِّى مقتول لا محالة. قالوا: وكيف؟ قال: إنى رأيتُ البارحةَ كأن يدى التى أُصيبت بكابُل انحطّت من السماء، فاستَشلتنى [2]. فلما كان من الغد قاتل إلى اللّيل، ثم غاداهم

(١) لقب به لكثرة لحمه فى صغره.
(٢) استشلتنى: استنقذتنى.

القِتال . فقُتل يومئذٍ . فقام بأمر أهل البصرة الحجّاج بن باب الحميرىّ . وقد اقتتل الناسُ يومئذٍ وقبله بيومين قِتالاً شديداً ، لم يَقْتتلوا مثلَه ، تَطاعنوا بالرِّماح حتى تقصَّفت ، ثم تَضاربوا بالسُّيوف والعَمد حتى لم يَبْقَ لأحد منهم قُوة ، وحتى كان الرَّجل يَضرب الرجل فلا يُغنى شيئاً من الإعياء ، وحتى كانوا يترامَوْن بالحجارة ويتكادمون [1] بالأفواه . وقاتل الحجّاجُ بن باب قتالاً شديداً . ثم اختلف هو وعِمْران بن الحارث الرَّاسبّى بضَرْبتين ، كُل واحد منهما قَتل صاحبه . ثم تحاجزوا ، وأصبح أهلُ البصرة وقد هَرب عامّتهم . وقام بأمر أهل البصرة حارثةُ بن بدر الغُدانى . وجاء للخوارج مَدد من اليمامة فقَوُوا به ، وانهزم حارثة بمن معه من أهل البصرة . وتبعتْهم الخوارجُ ، فألقى أهل البصرة أنفسهم فى دُجيل ، فغرق منهم خَلْق كثير ، وسلمت بقيّتُهم . ففى ذلك يقول قَطرىُّ بن الفُجاءة المازنى من الخوارج — وقيل : قائله صالح بن عبد الله العَبْشمّى . وقيل : عَمرو القَنا . وقيل : حَبيب بن سهم — وهو الشعر الذى فيه الغناء وافتتح به أبو الفرج خَبر وقعة دولاب ، وهو :

لعمرك إنّى فى الحياة لزاهدُ ... وفى العيش مالم أَلْقَ أُمّ حَكيم
مِن الخَفِرات البِيض لم أَرَ مِثْلَها ... شِفاءً لِذى بَثّ ولا لِسَقيم
لعمرُك إنّى يومَ أضرب وَجْهها ... على نائبات الدَّهر غيرُ حَليم
فلو شهدتْنى يومَ دُولاب أبصرتْ ... طِعانَ فتًى فى الحرب غيرِ [2] ذَميم
غَداةَ طَفَتْ عَلْماء [3] بكرُ بن وائلٍ ... وألّافها مِن حِمْيرٍ [4] وسَليم
ومال الحجازيّون نحوَ بلادهم ... وعُجْنا صُدورَ الخيل نحو تَميم
وكان لعبد القَيْس أول جِدِّها ... وولّتْ شُيوخُ الأزد فهى [5] تَعوم

(١) يتكادمون : يتعاضون .
(٢) فى الأغانى : « لئيم » .
(٣) يريد : على الماء .
(٤) هو سليم بن منصور بن عكرمة ، بالتصغير ، وكبر للوزن .
(٥) فى البيت إقواء .

ولم أر يوماً كان أكثر مُقْعَصًا يَمُجّ دَماً من فائظٍ[1] وكَليم
وضاربةً خدًّا كريماً على فَتًى أغرَّ نجيبِ الأُمهات كَريم
فلو شَهِدتْنا يومَ ذاك وخيلُنا تُبيح من الكُفّار كُلَّ[2] هَزيم
رأت فِتيةً باعُوا الإلٰه نفُوسَهم بجنّات عَدْن عنده ونَعيم

وذُكر أن أُم حكيم التى عناها الشاعر كانت امرأة من الخوارج مع قَطريّ بن الفُجاءة، وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجهاً. فخطبها جماعةٌ منهم فردّتهم ولم تُجبهم إلى ذلك. فأخبر مَن شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز: شىء عن أم حكيم

أحمل رأساً قد سئمتُ حَمْلَه وقد مَلِلْتُ دَهْنَه وغَسْلَه
ألا فتًى يَحمل عنى ثِقْلَه

قال:

وهم يُفَدُّونها بالآباء والأُمهات. فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلَها.

* * *

ثم ذكر أبو الفرج عبد الله بن هارون العَروضيّ. ولم يذكر له أخبارا. وشِعره الذى فيه الغناء. كلمة عن العروضى

يأيها الرجلُ الذى قد زان منطقَه البيانُ
لا تَعتبنّ على الزّما ن فليس يُعْتِبك الزّمان

ثم ذكر أبو الفرج جماعةً من المُغنين وهم: سِياط، ونُبيه، وسُليم، وابن عبّاد ويحيى المَكّى. ولم أجد لهم شيئاً يُنتفع بذكره، إذ كان كل ما ذُكر فيما يتعلّق بأصوات الغناء والنَّغم والصناعة. وهذا الكتاب فقد شُرط فيه التَّجريدُ من ذلك كُله. بعض من ذكرهم الأصفهانى من المغنين وأهملهم ابن واصل

(١) المقعص: الذى طعن بالرمح فمات مكانه. والفائظ: الميت. والكليم: الجريح.
(٢) فى الأغانى: «حريم» مكان «هزيم».

أخبار النميرى

نسبه ومنشؤه وهواه بزينب

هو محمد بن عبد الله بن نُمير بن خَرشة بن رَبيعة بن حُبَيِّب بن الحارث بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم بن قَسِيّ ، وهو ثَقيف . شاعرٌ غَزل . مَولده ومَنشؤه بالطائف . من شُعراء الدَّولة الأَموية . وكان يَهوى زَينب بنت يوسف ، أُخت الحجّاج بن يُوسف ، أمير العراقين ، لأَبيه وأُمه . وله فيها أشعارٌ كثيرة يَنْسب فيها بها .

شيء عن الفارعة أم زينب

وأُم زينب والحجّاج الفارعةُ بنت همّام بن عُروة بن مَسْعود الثَّقفيّ . وكانت عند المُغيرة بن شُعبة ، فرآها المُغيرة يوماً بُكْرةً وهى تَتخلَّل ، فقال : والله لئن كان من غَداء لقد أَجْشَعت ! (١) وإن كان من عَشاء لقد أنْتنت ! ولَفظها وطَلَّقها . فقالت : أَبعدك الله ! فبئس بعلُ الحُرة أنت ! والله ما هو إلا من شَظِيّة مِسواك استمسكتْ بين أسنانى .

وقوع الحجاج فيه وهو غلام لذكره أخته

وحكى مُسلم بن جُندب قال : إنّى لمع مُحمد بن عبد الله بن نُمير بنَعْمان ، (٢) وغُلام يَشتدّ خلفه يشتُمه أقبح الشَّتيمة . فقلت : مَن هذا ؟ فقال : هذا الحجّاج ابن يوسف ، دَعْه فإنّى ذكرتُ أُخته فى شعرى فأَحفظه ذلك .

الحجاج فى ميراث لأخته مع عروة عند ابن زياد

وحُكى أنه وَلدت الفارعةُ أُم الحجّاج من المُغيرة بن شُعبة بنتاً ، فماتت . فنازع الحجاجُ عُروة بن المُغيرة فى مِيراثها ، فأَغلظ الحجاج لعُروة ، فأَمر به عُبيد الله ابن زِياد فضُرب أسواطاً على رأسه وقال : ألأبى عبد الله تقول هذه المَقالة ! وكان الحجّاج حاقداً على آل زياد وينفيهم عن آل أبى سُفيان .

---

(١) المسموع فيه : جشع ، من باب فرح .

(٢) هو نعمان الأراك : واد بينه وبين مكة نصف ليلة .

أول شعره فى زينب

وذُكر أن الفارعة أم الحجاج كانت نَذرت لئن عُوفى يوسف أبو الحجّاج ، وكان اُعتلّ فطالت عِلّته ، أن تَمشى إلى الكَعبة معه . فعُوفى ، فخرجتْ فى نِسوة فقطَعْن بطن وَجٍّ [١] — وهو ثلثمائة ذِراع — فى يومٍ جعلتْه مرحلةً ، لِثَقل بَدَنها ، ولم تَقطع ما بين مكة والطائف إلا فى شَهر . فبينا هى تسير إذ لقيها إبرهيمُ بن عبد الله النُّميرى ، أخو محمّد بن عبد الله ، مُنصرفاً من العُمرة ، فلما قَدم الطائف أتى محمداً يُسلِّم عليه ، فقال : ألك عِلْم بزَينب ؟ قال : نَعم ، لَقيتُها بالهَماء [٢] فى بَطن نَعْمان. فقال : ما أَحسبك إلّا وقد قلتَ شيئاً ؟ قال : نعم ، قلتُ بيتاً واحداً وتناسيتُه كراهةَ أن يَنْشَب بيننا و بين إخوتنا شرّ . فقال محمد هذه القصيدة ، وهى أولُ ما قاله :

تَضوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نَعمانَ أن مَشَتْ ... به زَينبٌ فى نِسوة عَطِراتِ
فأَصبح ما بين الهَمَاء [٣] وجَذوة ... إلى الماء ماء الجِزْع [٤] ذى العُشَرات
له أَرجٌ من مِجْمر الهِنْدِ ساطِعٌ ... تطلّع رَيّاه من [٥] الكَفِرات
تَهادَيْن ما بين المُحصَّب [٦] من مِنًى ... وأَقبلن لا شُعْثاً ولا غَبِرات
أعان الذى فوق السَّموات [٧] بيتَه ... مَواشِيَ بالبطحاء [٨] مُؤتجرات
مَرَرْن بفَخٍّ ثم رُحْن عشيةً ... يُلبِّين للرحمن مُعْتمرات
يخمِّرن [٩] أطرافَ البَنان من التقى ... ويَخْرجن جُنْح اللَّيل [١٠] مُعْتجرات

(١) واد بالطائف . وقد ساق أبو الفرج الحديث وجعل التى نذرت زينب . وعلى رواية ابن واصل فكأن زينب فى ركب أمها .
(٢) الهماء : موضع بنعمان .
(٣) وفى رواية : «فحزوة» . وليس فى معجم البلدان مكان بهذا الاسم أو ذاك . وفى رواية أخرى : « فصاعداً » .
(٤) العشرات : من كبار الشجر ، جمع عشر . (٥) الكفرات : الجبال العظيمة .
(٦) المحصب : موضع قريب من منى ، بينه و بين مكة .
(٧) فى الأغانى : « عرشه » مكان «بيته» .
(٨) مؤتجرات : طالبات للأجر . وفى رواية : « معتجرات ، أى لابسات المعاجر ، وهى أثواب تلفها النساء على رءوسهن .
(٩) فى الأغانى : « يخبئن » .
(١٠) الرواية فى الأغانى : ويقتلن بالألحاظ مقتدرات .

تَقَسَّمن لُبِّى يومَ نَعمانَ إنّنى رأيتُ فؤادى عارِمَ (١) النَّظرات
جَلَوْن وُجوهاً لم تَلُحْها سَمائمٌ حَرُورٌ ولم يُسْفَعْن (٢) بالسَّبَرات
فقلتُ يَعافيرُ الظِّباء تناولتْ نِياعَ (٣) غُصون المَرْد مُهْتَصِرات
ولما رأتْ رَكْبَ النُّميرىّ راعَها وكُنّ مِنَ انْ يَلْقَينه حَذِرات
فَأَدنين حتى جاوز الركبُ دونها حجاباً من القَسّىّ (٤) والحِبَرات
فكِدْتُ أشتياقاً نحوها وصَبابةً أُقطِّع (٥) نفسى إثْرها حَسَرات
فراجعتُ نفسى والحَميظةَ بعد ما بَلَلْتُ رِداء العَصْب (٦) بالعَبَرات

هو وعبد الملك والحجاج فى هذه القصيدة

وذُكر أنّ هذه القصيدة بلغتْ عبد الملك بن مَروان ، فكَتب إلى الحجّاج أبن يوسف :

قد بلغنى قولُ الخبيث فى زَينب ، فالْهُ عنه وأَعرض عن ذكره ، فإنك إن أدنيتَه أو عاتبتَه أطمعتَه ، و إن عاقبتَه صَدَّقته .

وذُكر أن النُّميرى هَرب من الحجّاج إلى عبد الملك بن مروان واُستجار به . فقال له عبد الملك : أَنشدنى ما قلتَ فى زينب . فأَنشده . فلمّا أنتهى إلى قوله :

ولمّا رأتْ رَكْبَ النُّميرى أَعرضتْ وكُنَّ مِنَ ان يَلْقينه حَذِراتِ

فقال له عبد الملك : ما كان ركبُك يا نُميرى ! قال : أربعة أَحمرة لى كنتُ أجلبُ عليها القَطران ، وثلاثة أَحمرة صُحبتى تحمل البَعر . فضحك عبدُ الملك حتى اُستغرب ضحكا ، ثم قال : لقد عظُم أمرُك وأَمر رَكبك ! وكتب إلى الحجّاج :

(١) عارم : شارد .
(٢) السبرات : جمع سبرة ، وهى شدة البرد .
(٣) النياع : المتمايلة . والمرد : ناضج الأراك .
(٤) القسى : ثياب منسوبة إلى « قس » بلدة كانت بين العريش والفرما .
(٥) فى رواية : « تقطع » .
(٦) العصب : ضرب من البرود .

لا سبيلَ لك عليه . فلمّا أتاه الكتابُ وضعه ولم يقرأه . ثم أقبل على يزيدَ بن أبى مُسلم فقال له : أنا برىء من بَيعة أَمير المُؤمنين ، لئن لم يُنشدنى ما قال فى زَينب لآتين على نفسه ، ولئن أنشدنى لأعفونّ عنه ، وهو إذا أنشدنى آمن . فقال له يزيد : ويلك ! أنشده . فأنشده قوله :

تَضوّع مسكاً بطنُ نَعمان أن مشتْ به زينبٌ فى نِسْوة عَطِرات

فقال له : كذبت والله ! ما كانت تَعطّر إذا خرجتْ من منزلها . ثم أَنشده حتى بلغ إلى قوله :

ولما رأت رَكْب النُّميرى أعرضتْ وكُنّ منْ أن يَلْقينه حَـذِرات

فقال : يحقُّ لها أن ترتاع لإنّها من نسوة خَفِرات صالحات . ثم أنشده حتى بلغ إلى قوله :

مرَرْن بفخٍّ رائحاتٍ عشـيةً يُلبِّين للرَّحمٰن مُعْتمـرات

فقال : صدقتَ ! لقد كانت حجّاجة صوّامة ما علمتها . ثم أنشده حتى بلغ إلى قوله :

يخمِّرن أطرافَ البنـان من التُّقى ويَخْرجن جُنْح اللَّيـل مُعتجرات

فقال له : صدقت ! هكذا تَفعل المرأة الحُرة المُسلمة . ثم قال له : ويحك ! إنى أرى ارتياعك ارتياع مُريب ، وقولك قول برىء ، وقد أمّنتك . ولم يعرض له .

من شعره فى زينب

ومما قاله النُّميرى فى زينب أخت الحجّاج :

طَرِبْتَ وشاقتْك المنازلُ من[1] جَفْن ألاَ ربما يعتـادك الشوقُ بالحُزْنِ

نظرت إلى أظعـان زينبَ باللِّوى فأَعولْتها[2] لو كان إعوالُها يُغنى

فوالله لا أَنْسـاكِ زينبُ ما دعتْ مُطوَّقةٌ وَرْقاء شَجْواً على غُصن

(١) جفن : واد بالطائف لثقيف

(٢) الإعوال : رفع الصوت بالبكاء .

وإن احتمال الحىّ يومَ تحمّلوا عَنَاك وهل يَعْنيك إلا الذى يَعْنى
ومُرْسِلة فى السرّ أن قد فَضَحْتنى وصرّحت باسمى فى النَّسيب فما تَكْنى
وأشمتّ بى أهلى وجُلّ عَشيرتى لِيَهْنِئْك ما تَهواه إنْ كان ذا يَهْنى
وقد لامنى فيها ابْنُ عَمِّىَ ناصحاً فقلتُ له خُذ لى فؤادىَ أوْ دَعنى

ويقال : إنه بلغ زينبَ قولُه هذا ، فبكتْ . فقالت لها خادمتها: ما يُبكيك؟ فقالت : أخشى أن يَسمع بقوله هـذا جاهلٌ لا يَعرفنى ولا يَعلم مَذهبى فيظُنّه حقًّا .

ومما قاله فيها أيضاً ، وهو الشعر الذى فيه الغناء وافتتح به أبو الفرج أخبار النُّميرى:

أهاجتْك الظعائنُ يومَ بانُوا بذى الزِّىِّ الجَميل من الأثاثِ
ظعائنُ أسلكت نَقْبَ[1] المُنَقَّى تُحَثُّ إذا ونتْ أىّ احتثاث
تؤمِّل أن تُلاقِىَ أهلَ بُصْرى فيا لك من لقاء[2] مُستراث
كأنّ على الحَدائج يومَ بانُوا نِعاجاً ترتَعى بَقْلَ[3] البِرَاث
يُهيِّجنى الحمامُ إذا تَداعى كما سَجع النَّوائح فى[4] المراثى
كأنّ عُيونهنّ من التبكّى فُصوصُ الجَزْع أو يُنَع[5] الكَباث
أَلاقٍ أنت فى الحِجَج البَواقى كما لاقيتَ فى الحِجج الثلاث

ما أخذه عبدالملك على الحجاج بشأنه حين بعثه لحرب ابن الزبير

وذُكر أن عَبد الملك بن مَروان لما بَعث الحجاجَ بن يوسف إلى حرب عبدالله

(١) نقب المنقى : بين مكة والطائف .
(٢) مستراث : بطىء .
(٣) الحدائج : من مراكب النساء ، مثل الهودج . والنعاج : البقر الوحشى . والبراث : الأماكن السهلة .
(٤) فى الأغانى : « بالمراثى » .
(٥) الجزع : الخرز فيه سواد وبياض. وينع : جمع يانع . والكباث : النضيج من ثمر الأراك.

أبن الزُّبير قام إليه يوسفُ بن الحكم أبو الحجاج ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن غُلاماً منّا قال فى أبنتى زينب ما لا يَزال الرجلُ يقولُ مثلَه فى أبنة عمّه ، و إن هذا — يَعنى الحجاج — لم يزل يتَتوّق إليه ويَهُم به ، وأنت الآن تبعثه إلى ما هنالك ، وما آمنه عليه . فدعا عبدُ الملك الحجّاجَ فقال له : إن محمداً النُّميرى جارِى ولا سُلطان لك عليه ، فلا تَعرض له .

تهديد الحجاج له وهربه وشعره فى ذلك

وذُكر أن الحجّاج كان يتهدّد النُّميرى و يقول: لولا أَن يقول قائل: صدق، لقطعتُ لِسانَه . فهرب إلى اليَمن ثم ركب بَحر عَدَن ، وقال فى هربه :

أتتْنى عن الحجّاج والبحرُ بيننـــا ... عقاربُ تَسْرى والعُيون هواجِعُ
فضِقْتُ بها ذَرْعاً وأجهشتُ خِيفةً ... ولم آمَنِ الحجّاجَ والأمرُ فاظع
فبِتُّ أُدير الأَمر والرأىَ ليلتى ... وقدأَخضلتْ خَدِّى الدُّمُوع التَّوابع
فلم أَر خيراً لى من الصَّبر إنّه ... أعفُّ وخَيرٌ إذ عَرتْنى الفواجع
وما أَمِنَتْ نفسى الذى خِفْتُ شَرّه ... ولا طاب لى مما خَشِيتُ المضاجع
إلى أن بدا لى رأسُ إسْبِيلَ[1] طالعاً ... و إسبيلُ حِصْنٌ لم تَنله الأَصابع
فنى الأرض ذاتِ العَرض عنك ابنَ يُوسف ... إذا شئتُ مَنَأًى لا أبا لَك واسع
فإن نِلْتنى حجّاجُ فاشْتفِ جاهداً ... فإنّ الذى لا يَحفظ اللهُ ضائع

فطلبه الحجّاج فلم يَقدر عليه ، وطال على النُّميرى مقامَه هار باً ، واشتاق إلى وطنه ، فجاء حتى وقف على رأس الحجّاج . فقال له : إيه يا نُميرى! ألستَ القائل:

* فإن نِلْتنى حجّاج فاشتف جاهداً *

فقال : بل أنا الذى أقول :

أخاف من الحجّاج ما لستُ خائفا ... من الأسد العِرْباض[2] لم يَثْنِه ذُعْرُ

(١) إسبيل : جبل فى مخلاف ذمار .
(٢) العرباض : العظيم .

أخاف يدَيْه أن تَنالا مَقاتلى بأبيضَ عَضْبٍ ليس من دونه ستْر

وأنا الذى أقول :

فهأنذا طوّفتُ شَرقاً ومغـرباً وأبْتُ وقد دَوَّخت[1] كُلَّ مَكانِ
فلو كانت العَنقاء يوماً تَطير بى لخِلْتُك إلّا أن تَصُـدّ تَرانى

فتبسم الحجّاج وأمّنه وقال له : لا تُعاود ما تَعلم . وخلّى سبيلَه .

شىء عن زواج زينب ثم وفاتها ورثاء النميرى لها

وذُكر أن الحجّاج عَرض على زينب أُختـه أن يُزوِّجها محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عَقيل ، وهو ابن سبعَ عَشرة سنة ، وهو يومئـذ أَشرفُ ثقفىّ فى زَمانه ؛ أو الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبى عَقيـل ، وهو شـيخ . فاُختارت الحكم . فزوّجها إياه . فلما ولى الحجّاج العراقَ اُستعمل الحكم زوجَ أُخته زَينب على البَصرة . فلما خَرج على الحجّاج عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث وجّه الحجاجُ بزينب مع حُرمه إلى الشام ، خوفاً عليهنّ . فلما قُتل ابنُ الأشعث كَتب إلى عبـد الملك بن مروان بالفَتح ، وكتب معه كتاباً إلى زَينب يُخبرهـا الخبر. فأعطاها الرسولُ الكتابَ وهى راكبةٌ على بَغلة فى هَودج، فنشرتْه تقرؤه ، فسمعت البغلةُ قَعْقعة الكِتاب ، فنفرتْ وسَقطت زينبُ عنها ، فاُندقّ عَضُدها وتَهرّأ جوفُها ، فماتتْ . وعاد إليه الرسولُ ، الذى نَفـذ بالفَتح ، بوفاة زينب . فقال النميرى يَرثيها :

لزينبَ طيفٌ تَعـترينى طوارقُه هُدوءاً إذا النَّجم اُرجحنّت[2] لواحقُه
سَيَبْكيكِ مِرْنانُ العشىّ يُجيبـه لَطِيفُ بنان الكَفِّ دُرْمٌ[3] مَرافقه
إذا ما بِساطُ اللَّهو مُدَّ وأُلقيت لِلذّاته أنمـاطُه ونَمارقـه

(١) دوخت كل مكان : سرت فيه حتى عرفته فلم تخف على طرقه .
(٢) ارجحن النجم : مال إلى الغروب .
(٣) مرنان العشى : يريد الصنج ذا الأوتار . والدرم : التى لا حجم لعظامها ، الواحد : أدرم .

أعجب ابن المسيب بشعره و زاد عليه

وذُكر أن سَعيد بن المُسيِّب رحمه الله مرّ فى بعض أزقّة مكة ، فسمع الأخضر الحَربىّ يتغنَّى فى دار العاص بن وائل :

تَضوّع مسكاً بَطنُ نَعْمان أن مَشتْ به زينبٌ فى نِسْوة عَطِراتِ

فضرب سعيدٌ برجله وقال : هذا والله مما يلذّ اُستماعُه ! ثم قال :

وليستْ كأُخرى أوسعتْ جَيبَ دِرْعها وأَبدت بَنان الكَفِّ للجَمَرات
وعلَّت بَنان المِسك وَحْفاً (١) مُرجَّلاً على مِثل بَدْرٍ لاحَ فى الظلمات
وقامت تَراءى يومَ جَمْعٍ (٢) فأفْتنت برُؤيتها مَن رَاح من عَرَفات

فكانوا يَرْوون (٣) هذا الشعر لسعيد بن المُسيِّب .

استنشدته عائشة بنت طلحة شعره فى زينب

وذكر أنه لما تأيّمت عائشةُ بنت طلحة كانت تُقيم بمكة سنةً و بالمدينة سنة ، وتَخرج إلى مالٍ لها عظيم بالطائف وقَصرٍ كان لها هناك تَتنزّه فيه ، وتَجلس بالعشيات ، فيتناضل بين يديها الرُّماة . فمرّ بهـا النُّميرى الشاعر . فسألت عنه فنُسب لها . فقالت : ائتُونى به . فأتوها به . فقالت له : أَنشدنى ما قُلت فى زَينب. فأمتنع عليها ، وقال: بنت عَمِّى قد صارت عِظاماً بالية . فقالت : أَقسمت عليك إلّا فعلتَ . فأَنشدها قوله : « تضوّع مسكا » الأبيات . فقالت : والله ما قُلتَ إلّا جميلاً ، ولا ذكرت إلا كرماً وطيبا ، ولا وصفت إلا دِينا وتُقًى ! أَعطوه ألف دِرهم . فلما كانت الجُمعة الأُخرى تَعرّض لها. فقالت : علىّ به. فأُحضر . فقالت: أَنشدنى من شعرك فى زَينب . فقال لها : أَوَ أُنشدك من شعر الحارث بن خالد (٤)

(١) الوحف : الشعر الغزير . وبنان المسك : أصابعها المغمورة به ، فكأنها هو . وعلت : أى سقت بأصابعها شعرها الطيب مرة ومرة . يشير إلى تكرار مرور الأصابع بالشعر .
(٢) جمع : المزدلفة .
(٣) فى الأغانى : « يرون أن » .
(٤) سبقت ترجمته (ج ١ ص ١٢٩) .

فيك ؟ فوثَب مواليها إليه . فقالت : دعُوه فإنه أراد أن يَستقيد لابنة عَمِّه . هات ممّا قال الحارث فىّ . فأنشدها :

ظَعن الأميرُ بأحسن الخَلْق وغَدوْا بلبّك مَطْلَعَ الشَّرقِ

فقالت : والله ما ذَكر إلا جَميلا ، ذكر أنّى إذا صبَّحتُ زوجاً بوجهى غدا بكوكب الطَّلْق،(١) وأنى غدوتُ مع أمير تزوَّجنى إلى الشَّرق ، وأنى أحسنُ الخَلْق فى البيت ذى الحَسب الرفيع . أعطُوه ألف درهم، واكسُوه حُلَّتين ، ولا تَعُدْ لإتياننا بعد هذا يا نُميرىّ .

من شعره فى زينب

ومن شعر النُّميرى فى زينب :

ألاَ مَن لقَلْبٍ مُعنًّى غَزِلْ أَحبَّ المُحلَّة أُخت المُحِلّْ
تراءتْ لنا يومَ فَرْع الا را كِ بين العَشِىّ(٢) وبين الأُصُل
كأنّ القَرَنْفُل والزَّنْجبيلَ وريحَ الخُزامَى وذَوْب العَسل
يُعَلّ به بَرْد أنيابها إذا النَّجْم وسْط السّماء(٣) اعْتدل

وعَنى النُّميرى « بالمُحل » أخاها الحجّاج ، وكان يُسمى(٤) بذلك لإحلاله الكعبة بمُحاصرته ابن الزُّبير ورَميها بالمجانيق . وكان أهلُ الشام يُسمّون ابن الزبير بذلك ، لأنه أحلّ الكعبة بمقامه فيها .

---

(١) تشير إلى بيت الحارث فيها :

ما صبحت أحداً برؤيتها إلا غدا بكواكب الطلق

(٢) فى رواية : « العشاء » .

(٣) ويروى العجز :

* إذا ما صفا الكوكب المعتدل *

(٤) فى الأغانى : « وكان أهل الحجاز يسمونه بذلك » .

أخبار الوضاح

اسمه ونسبه ولقبه

وهو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كُلال بن داذ بن أبى جَمَد .

واُختلفوا فى تحقيق نَسبه ، فقيل : إنه من أولاد الفُرس الذين قَدِموا مع وَهْرِز لنُصرة سَيف بن ذى يَزَن على الحَبشة .

وقيل : إنه من آل خَولان بن عمرو بن قيس بن مُعاوية بن جُشَم بن عبد شَمس بن وائل بن الغَوث بن قَطن بن عَريب بن زُهير بن أَيمن بن الهَمَيْسع بن حِمْير ابن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحطان .

والوضّاح لَقب غَلب عليه لجماله وبهائه .

قيل : مات أبوه وهو طِفل ، فاُنتقلت أُمه إلى أَهلها ، واُنقضتْ عِدتُها ، وتزوّجت رجلاً من أَهلها من أولاد الفُرس . وشَبّ وضّاح فى حِجر زوج أُمه . فجاء عَمُّه وجدّتُه أُم أبيه ، ومعهم جماعةٌ من أهل بيته من حِمْير ، ثم من آل ذى جَدَن ، يطلبُونه . فاُدعى زوجُ أُمه أنه ولدُه . فحاكموه فيه ، وأقاموا البينةَ أنه وُلد على فراش إسماعيل بن عبد كُلال أبيه . فحكم به الحاكمُ للحِمْيريين . ومَسح على رأسه وأعجبه جماله وقال له : اُذهب فأنت وضّاح اليَمن ، لا من أَتباع ذى يَزن — يَعنى الفُرس الذين قدم بهم اُبنُ ذى يَزن لنُصرته — فعلقت به هذه الكلمةُ يومئذ ، فلُقّب وضّاحَ اليمن .

هو والمقنع والطائى

وقيل :

كان وضّاح اليَمن والمُقَنَّع الكِنْدىّ وأبو زُبيد الطائىّ يَرِدون مواسمَ العَرب مُقنَّعين يستُرون وجُوههم خوفاً من العَين وحَذَراً على أنفسهم من النِّساء لجمالهم .

هو وروضة وشعره فيها

وذُكر أن وضّاح اليمن كان يَهوى امرأة يقال لها : رَوْضة من أهل اليمن ، ثم أصابها الجُذام من بعد ذلك ، فانقطع ما بينهما . وفيها يقول :

يا رَوْضةَ الوضّاحِ قد ... عَنَّيتِ وضّاح اليَمَنْ
فاسقِي خليلَك مِن شرا ... بٍ لم يُكدِّره الدَّرَن
الريحُ ريح سَفَرْجلٍ ... والطعمُ طعم سُلَافِ دَنْ
إنّى تُهيِّجنى إليـ ... ـكِ حمامتان على فَنَن

ومن هذه القصيدة :

دَسَّتْ حُبَيْبة مَوْهِناً ... إنِّى وعيشِك يا سَكَن
أُبلغتُ عنكِ تبدُّلاً ... وأتى بذلك مُؤْتَمن
وظننتُ أنك قد فعلـ ... ـتِ فكِدْتُ من حَزَنٍ أُجَنّ
ذَرَفتْ دُموعى ثم قُلـ ... ـتِ بمَنْ يُبادلنا (١) بمَن

ومنها :

أبغضت فيـه أحبَّتى ... وقَلَيتُ أهْلى والوطَن
أتركتنى حتى إذا ... عُلِّقت أبيضَ كالشَّطَن
أنشأتَ تطلُب وَصْلَنا ... فى الصَّيف ضَيَّعتِ (٢) اللَّبن
لو قيل يا وضّاح قُم ... فاختَرْ لنفسك أو تَمَنّ
لم أعْدُ روْضةَ والذى ... ساق الحجيجُ له البُدُن

وله فيها أشعار كثيرة . ومما قاله فيها قصيدتَه التى أولها :

يا لَقَوْمى لكثرة العُذّالِ ... ولِطَيفٍ سَرى مَليحِ الدَّلالِ

(١) فى رواية : « يبادلنى » .
(٢) هذا مثل . وأصله أن امرأة كانت تحت شيخ كبير موسر فكرهته ، فطلقها . فتزوجها فتى جميل مملق . فبعثت إلى الأول تستميحه . فقال ذلك المثل .

زائر فى قصور صَنْعاء يَطْوى[1] كُلَّ أرضٍ مَخُوفةٍ وجِبَالِ

ومنها :

يَقطع الحَزْن والمَهامه والبيـ ـــد ومن دونه ثَمانُ لَيال
عاتبٌ فى المَنام أَحْبِبْ بعُتْبا ه إلينا وقَوْلِه مِنْ مَقال
قلتُ أهلاً ومرحباً عددَ القَطْ ر وسَهلاً بطَيف هذا الخيال
حبّذا مَن إذا خلونا نَجِيًّا قال : أَهلى لك الفِداء ومالى
فهى الهمُّ والمُنَى وهوى النَّفْ س إذا اُعتلّ ذو هَوًى باُعتلال
لم أَجِدْ حُبَّها يُشاكله الحُـ ـبّ ولا وَجْدَنا كَوجد الرِّجال
كُل حبٍّ إذا اُستطال سيَبْلى وهَوى رَوْضةِ المُنى غيرُ بالى

ومنها :

كيف عَذْلى على التى هى منِّى بمكان اليمين أُخت الشِّمال
والذى أحـــرموا له وأَحلُّوا بمِنًى صُبْحَ عاشراتِ[2] اللَّيالى
ما ملكتُ الهَوى ولا النفسَ منِّى مُنذ عُلِّقتُها وكيف[3] اُحتمالى
إن نأتْ كان نأيُها الموتَ صِرْفاً أو بدتْ[4] لى فثَمَّ يبدو خيالى

حبه لأم البنين

ثم هَوى وضّاح اليمين أُم البَنين بنت عبد العزيز بن مَروان ، زوجة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وأكثر من التَّشبيب بها. وكان سَبب حُبّه لها أنها اُستأذنت زوجَها الوليد بن عبد الملك فى الحج ، فأَذن لها ، وهو يومئذٍ خليفة . فقدمتْ مكة ومعها من الجوارى مالم يُرَ مثله حُسنا وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً من تبعها .فقَدِمت ، فتراءت للناس . وتصدّى لها أهل الغَزل والشُّعراء ، ووقعت عينُها على وضّاح اليمن فهو يتْه .

(١) فى رواية : « يسرى » .
(٢) أى جمع الليلة العاشرة من ذى الحجة .
(٣) فى رواية : « احتيالى » .
(٤) فى رواية : « أو دنت » .

أم البنين وكثير ووضاح

وقيل: إنها بَعثت إلى كُثَيِّر والى وضّاح: أن انْسُبا بى. فأما وضّاح فإنه ذَكرها وصَرَّح فى النَّسيب. وأما كُثير فعدل عن ذِكرها ونَسَب بجاريتها غاضرة.

أعانته أم البنين عند الوليد بن عبد الملك

وقيل: مدح وضّاح اليمن الوليدَ بن عبدالملك، ووعدته أم البنين أن تُرْفِده [1] عنده وتُقوِّى أمره — فقدم عليه وضّاح اليمن، فأنشده قولَه فيه:

صَبا قلبى ومال إليك مَيْلاَ ... وأَرَّقنى خيالُك يا أُثَيْلاَ
يمانيةٌ تُسلِّم بنا فتُبْدى ... دَقيقَ محاسنٍ وتُجِنَّ [2] غَيْلا
دَعينا ما أَمَمْنا [3] بناتِ نَعْش ... من الطَّيفِ الذى يَنْتاب لَيْلا
ولكنْ إن أردتِ فهيِّجينا ... إذا رَمقتْ بأعينها [4] سُهَيلا
فإنكِ لو رأيتِ الخيل تَعدو ... عوابِسَ [5] يتَّخذن النَّقْعَ ذَيْلا
إذاً لرأيتِ فوق الخيل أُسْداً ... تُفِيد مَغانماً وتُفيتُ نَيْلا
إذا سار الوليدُ بنا وسِرْنا ... إلى خَيل نَلُفّ بهن خَيْلا
ونَدخل بالسُّرور ديارَ قَوم ... ونُعقب آخرين أذًى ووَيْلا

فأحسن الوليد رِفْده وأعظم جائزته.

نكاية الوليد به

ومَدحه بعد ذلك بعدة قصائد. ثم نُمى إليه أنه يُشبب بزَوجته أم البنين. فجفَاه وأمر بأن يُحجب عنه ودَبّر فى قَتْله. فمدَحه بقوله:

ما بالُ عَيْنك لا تَنام كأنما ... طلب الطبيبُ بها قَذًى فأَضَلَّهُ
أمّ ما لِقَلْبك لا يَزال كأنه ... نَشوانُ أَنْهله النَّديم وعَلَّهُ
ما كنت أحسَب أن أبيتَ ببلدةٍ ... وأَخى بأُخرى لا أَحُل مَحلَّهُ

(١) ترفده: تعينه.
(٢) الغيل: الساعد الريان.
(٣) بنات نعش: من الكواكب الشامية، وكان غزوه نحو الروم، وفى رواية «ما أممت»
(٤) ويروى:
ولكن إن أردت فصبحينا ... إذا أمت ركائبنا سهيلا
(٥) فى رواية: «سراعاً» مكان «عوابس».

كُنا لعَمْرُكَ ناعِمين بغبطةٍ مع مَن نُحب مَبيتَه ومَظَلَّه

يقول فيها :

وأَلْق أبن مَرْوانَ الذى قد هَزَّه عِـرْقُ المَكارم والنَّدى فأقلَه
وأَشْكُ الذى لاقيتَه من [1] جَفْوةٍ وأَنشُر إليـه داء قَلبـك كُلَّه
فعلى أبن مَرْوانَ السلامُ من امرىءٍ أَمسى يذُوق مِن الرُّقاد أَقلَّه
فإليـــك أعملتُ المطايا ضُمَّراً وقطعتُ أرواح الشّتاء [2] وظلّه

وقيل :

حكاية مقتله

لمّا عَزم الوليدُ على قَتل الوضّاح ، قال له أبنه عبدُ العزيز بن الوليـــد —وأُمه أم البنين— : لا تفعل يا أمير المُؤمنين فتُحقق قولَه ، ولـكن أفعل به كما فَعل مُعاوية بن أبى سُفيان بأبى دَهْبـل ، فإنه لما شَبّب بأبنته شَكاه يزيد أبنـه وسأله أن يقتلَه، فقال : إذاً تُحقّق قولَه ، ولـكن تَبرّه وتُحسن إليه فيَستحى ويكُفّ ويُكذّب نَفْسه . فلم يَقبل منه ، وجَعله فى صُندوق ودَفنه حيًّا .

وحكى ابنُ الـكَلبى قال :

عشقتْ أُم البَنـين وضّاح اليمن ، فـكانت تُرسـل إليه فيدخُل إليها ويُقيم معها ، فإذا خافت وارتْه فى صُندوق عندها وأَقفلت عليه . فأُهدى للوليد جَوْهر له قيمة ، فأَعجبه واُستحسنه ، فدعا خادما له فبعث به إلى أُم البنين وقال : قل لهـا : إن هذا الجوهر أَعجبنى فآثرتُك به . فدَخل الخادمُ عليها مُفاجأة ووضّاح اليمن عندها ، فأَدخلتْه الصُّندوق وهو يرى ، فأدّى إليها رسالةَ الوليد ودفع إليها الجوهر وقال لها : يا مولاتى ، هَبى لى منه حَجَراً . فقالت : لا يأبن اللَّخناء ولا كرَامة ! فرَجع إلى الوليد فأخبره . فقال : كذبتَ يأبن اللَّخناء . وأَمر به فوُجئت عُنقه .

(١) فى رواية : « من دونه » .
(٢) فى رواية : « وظله » .

ثم لَبس نَعْليه فدَخل على أُم البنين وهى جالسةٌ فى ذلك البيت تمتشط ، وقد وَصف له الخادمُ الصُّندوق الذى أدخلتْه فيه . فجلس عليه ثم قال لها : يا أُم البَنين. ما أَحبَّ إليك هذا البيتَ من بين البُيوت ! فلم تَختارينه ؟ فقالت : أجلس فيه وأختاره لأنه يَجمع حوائجى كلها فأَتناولها منه كما أُريد من قُرب . فقال لها : هَبى لى صُنْدوقا من هذه الصَّناديق. فقالت : كُلها لك يا أمير المؤمنين . فقال : ماأُريد كُلها إنما أُريد منها واحداً . قالت : خُذ أيها شئت . قال : هذا الذى جلستُ عليه . قالت: خُذ غيره، فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها . قال : ماأريد غيره . قالت : خُذه يا أمير المؤمنين . فدعا بالخَدم وأمرهم بحمله ، فحملوه حتى انتهى به إلى مجلسه ، فوَضعه فيه . ثم دعا بعَبيدٍ له عَجم فأَمرهم بحَفر بئر فى المجلس عميقة ، فنُحِّى البِساط وحُفرت إلى الماء ، ثم دعا بالصُّندوق فوُضع على شَفير البئر ، ودنا منه وقال : يا صاحب الصُّندوق ، إنه بلغنا شىء إن كان حقًّا فقد كَفَيناك ودَفنَّاك ودفنَّا أَثرك إلى آخر الدَّهر ، وإن كان باطلاً فإنما دفنَّا الخشب ، وما أهونَ ذلك . ثم قَذف به إلى البئر وهِيل عليه التُّراب وسُوِّيتَ الأرض ، وردَّ البساط إلى حاله وجَلس عليه . ثم ما رُئى لوضّاح بعد ذلك أثر فى الدُّنيا إلى هذا اليوم، وما رأت أُم البنين لذلك أثراً فى وجه الوليد حتى فَرّق الموتُ بينهما .

حكاية الوليد به لتشبيبه بفاطمة أخته

قلت : وقد ذكر أبو الفرج عن خالد بن كُلثوم أن هذه الحكاية وضعها بعضُ الشُّعوبية لمّا تلاحى هو وبعضُ ولدِ الوليد . وأن الحقّ هو الرواية الأُولى. والله أعلم أىّ ذلك كان .

وقد ذُكر أن الوليد كان قد أمسك عن قَتْل وضّاح اليمن على غَيظ وحَنق ، لمّا نهاه ابنُه عبد العزيز عن قَتْله خوفَ الفَضيحة ، حتى بلغه أنه تعدّى أُمَّ البنين إلى أُخته فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجة ابن عمّه عُمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، وقال فيها :

بنتُ الخليفة والخليفةُ جدُّها أخت الخليفة والخليفةُ بَعلُها
فرحتْ قَوابلُها بها وتباشرتْ وكذاك كانُوا فى المَسرّة أهلُها

فاختلط واشتد غيظهُ ودَفنه حيًّا .

وله فى أم البنين وقد اعتلت

وذُكر أن أُم البَنين مَرِضتْ ، ووضّاح مُقيم بدمشق ، وكان نازلاً بها ، فقال فى علّتها :

حتّام نَكْتُم حُزْننا [1] حتّاما وإلَام نَسْتَبقى الدُّموعَ [2] إلَاما
إنّ الذى بى قد تَفاقم واعتَلَى ونَما وزاد وأَوْرث الأَسْقاما
قد أَصبحت أُم البنين مَريضةً نَخشى ونُشفق أن يَكون حِماما
يا ربّ أَمْتِعنا بطُول بَقائها وأَجْبر به الأَرمال والأَيتاما
وأُجْبر بها الرجلَ الغَريب بأرضها قد فارق الأَخوالَ والأَعماما
كم راغبين وراهبين وبُؤّس عُصموا بقُرب جَنابها إعْصاما
بجَناب ظاهرة الثَّنا محمودةٍ لا يُستطاع كلامُها إعظاما

الشعر الذى فيه الغناء

والشعر الذى فيه الغناء ، وأفتتح به أبو الفرج أخبار وضّاح اليمن ، هو :

يا قلبُ ويحك لا يذهبْ بك الخُرُق إنّ الأُلَى كنتَ تَهواهم قد انطلقُوا
ما بالهُم لم يُبالوا إذ هجرتَهُم وأنت مِن هَجرهم قد كِدْت تَحْترق

(١) فى التجريد : « حبنا » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « وعلام تستبق الدموع علاما » .

خبر بشار مع عبده

لبشار فى عبدة

قد تقدّمت أخبار بشار ، وذكر أبو الفَرج هنا شعراً لبشار يُغنَّى فيه ممَّا قاله فى عبدة ، فاقتضى ذلك أن نذكر خَبر بشّار مع عبدة خاصّة . والشعر هو :

ألاَ طَرَد الهوى عنّى رُقادِى ... فحسْبى ما لقيتُ من السُّهادِ
لعبدةَ إنّ عَبدة تيَّمتْنى ... وحلَّت من فؤادى فى السَّواد

روايته بينه وبينها

وذَكر هشام بن الأحنف روايةُ بشار قال :

إنى عند بشّار ذات يوم إذ أتتْه امرأةٌ فقالت : يا أبا مُعاذ ، عبدةُ تُقرئك السلام وتقول لك : قد اشتد شوقُنا إليك ولم نَرك منذُ أيام . فقال : عن غير مَقْلية كان . ثم قال : اكتب عنّى ما أقولُ . وأَمْلَى عليه :

عَبْدَ إنّى إليك بالأَشواق ... لِتَلاق وكيف لى بالتلاق
أنا والله أَشتهى سِحْر عَيْنيـ ... ـك وأَخشى مَصارِعَ العُشَّاق
وأخاف الحَرْسىّ[1] مُحْتَسب الجنْـ ... ـد يلُفّ البَرىء بالفُسَّاق

من شعره فيها

ومن قوله فيها :

يا عَبْد إنّى قد ظُلِمْتُ وإننى ... مُبْدٍ مقالةَ راغبٍ أو راهِبِ
وأتُوب مما تَكْرهين لتَقْبلى ... واللهُ يَقْبل حُسن فِعْل التائب

ومن قوله :

يا عَبْد زُورينى تَكُنْ مِنّةً ... لله عندى يومَ ألقاكِ
واللهِ ثم اللهِ فاسْتَيْقنى ... إنى لأرجوك وأَخْشاك

---

(١) الحرسى ، بالتحريك : حرس السلطان ، وسكن للضرورة .

يا عَبْد إنِّى هالكٌ مُدْنفٌ إن لم أَذُق بَرْدَ ثَنـــايا ك
فــلا تَرُدِّى عاشقاً مُدْنَفا يَرضَى بهذا القَدْرِ[1] عن ذاك

حديث حبه عبدة

وكان أول أمره معها أن النِّساء كن يحضُرن مجلسه ، إذ سمع كلام عَبْدة هذه فعَشقها ، فدعا غُــلامه فقال : إنِّى قد عُلِّقتُ امرأة ، فإذا تكلمتْ عرَّفتُك ، وانْظُر مَن هى فأعرفهــا ، فإذا انقضى المجلسُ وانصرف أهلُه فاتْبعها وكلِّمهــا وأَعلمها أَننى مُحبٌّ لها ، وأنشدها هذه الأبيات ، وعَرّفها أننى قلتُها فيها :

قالوا بمَن لا تَرى تَهْـذِى فقلتُ لهم الأُذن كالعَين تُوفى القَلْبَ ما كانا
ما كنتُ أوّلَ مَشْغوفٍ بجــارية يَلْقى بُلَقْيانهـــا رَوْحاً ورَيْحانا
يا قومُ أُذْنى لبعض الحىّ عاشــقةٌ والأُذن تَعْشق قَبْل العَـــين أحيانا

فأَبلغها الغلامُ الأبيات . فهشَّت لها ، وزارتْ بشَّارا فى نِسْوة ، فأَكلن عنده وشَرِبْن ، ولم تُطْمعه فى نفسها . وأَكثر من قَول الغَزل فيها .

---

(١) فى التجريد : « القول » .

أخبار الأحوص مع أم جعفر

شعره فيها الذى يغنى به

قد تقدَّم أيضاً نَسب الأحوص الأنصارىّ وأخبارُه . وذكر أبو الفرج هنا خَبره مع أُم جَعفر خاصة ، لقوله فيها مما يُغَنَّى به :

أرسلتْ أُم جَعفر : [1] لا تَزُرْنا ... ليت شِعْرى بالغَيْب من ذا دَهاها
أأتاهـــا مُحـــرِّشٌ بنَمِيمٍ ... كاذبٍ ما أراد إلاّ رَداهـــا

وأُم جعفر هذه امرأة من الأنصار من بنى خَطْمة .

هو وأخوها وعمر بن عبد العزيز

وذُكر أن الأحوص لما أكثر التَّشْبيب بأُم جعفر وشاع شعرُه فيها أوعده أخوها أَيْمَن وتَهدَّده ، فلم يَنْته . فاستعدى عليه عُمرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه . فَربطهما فى حَبل ودَفع إليهما سَوْطين ، وقال لهما : تجالدا . فغَلب أخوها .

وقيل : إن الأحوص سَلح فى ثيابه وهَرب ، وتَبعه أخوها حتى فاته الأحوص هرباً ، وقد كان الأحوص قال فيها :

لقد منعتْ معروفَها أُمُّ جَعفرٍ ... وإنِّى إلى مَعروفها لفَقِيرُ
وقد انكرتْ بعدَ اعترافٍ زيارتى ... وقد وَغِرتْ فيها علىّ صُدُور
أَدُور ولولا أنْ أرى أُمَّ جَعفر ... بأبياتكم ما دُرْتُ حيثُ أَدور
أزور البُيوتَ اللَّاصقات ببيتها ... وقَلبى بَالبيت [2] الذى لا أَزور
وما كنتُ زَوَّاراً ولكنّ ذا الهَوى ... إذا لم يَزُر لابُد أَن سَيَزُور

للسائب يعيره بفراره ورده عليه

وقال السائب بن عمرو بن عَوف يُعيره بفراره ويُعارضه فى هذه الأبيات :

لقد مَنع المعروفَ من أُم جعفر ... أخو ثِقةٍ عنـــد الجِلاد صَبُورُ

---

(١) فى رواية : « لاتزورنا »
(٢) فى الأغانى : « وقلبى إلى البيت » .

عَلاكَ بَمتْن السَّوط حتى اتَّقيتَه بأَصفَر من ماء الصِّفاق[1] يفُور

رد الأحوص

وقال الأحوص :

إذا أنا لم أَغْفـر لأَيمن ذَنْبَه فمَن ذا الذى يَعْفو له ذَنْبَه بَعْدِى

أُريد انتقـامَ الذَّنب ثم تَرُدُّنى يَدٌ لأدانيه مُبـاركة عنـدى

اقتداء عمر بعثمان فيما فعل

وإنما أَعطاهما عُمر رحمه الله السَّوطين وأَمرهما أن يَتضاربا بهما إقتداءً بعُثمان بن عفان رضى الله عنه ، فإنه لما تهاجَى سالمُ بن دَارة ومُرة الغَطفانى لَزَّهما عثمان بحَبل وأَعطاهما سَوْطين ، فتجالدا بهما .

من شعره فى أم جعفر

ومما قاله الأحوص فى أُم جعفر هذه :

وإنّى لَيَدْعونى هوَى أُمّ جَعفر وجاراتها من سـاعةٍ فأُجيبُ

وإنى لآتى البيتَ ما إن أُحبُّـه وأُكثِرهَجر البيت وهو حَبيب

وأُغضِى على أشياءَ منـكم تَسُوءنى وأُدْعَى إلى ما سَرّكم فأُجيب

هَبينى امرأً إمّا بَرِيئاً ظلمتِـه وإمّا مُسـيئاً مُـذنباً فيَتُوب

أَبُثُّـك ما ألقى وفى القَلب حاجةٌ لهـا بين جِلْدى والعِظام دَبيب

لكِ اللهُ إنّى واصـلٌ ما وصلتنى ومُثْنٍ بمـا أَوْليتنِى ومُثيب

وآخُذ ما أَعطيتِ صفواً[2] وإننى لآزُورُ عمّـا تكرهين هَيُوب

ولا تَتْركى نَفْسى شَعاعا فإنهـا من الحُزن قدكادت عليك تذوب

هو وأم جعفر وقد جاءته متنقبة

وذُكر أن الأحوص لمـا أكثر من ذِكر أُم جَعفر جاءت مُتَنقِّبةً فوقفتْ عليه فى مجلس قَومه ، وهو لا يعرفهـا ، وكانت امرأةً عفيفة ، فقالت : أُقْضِ ثمن الغَنم التى أُبتعتهَا منّى . فقال لها : ما أُبتعتُ منك شيئاً . فأظهرت كتاباً قد وضعتْه عليه و بكتْ وشكت حاجةً وضُرًّا وفاقةً وقالت : يا قوم ، كلِّموه . فلامه قومُه

(١) الصفاق : جمع صفق . وهو الجلد الجديد يصب عليه الماء فيخرج أصفر .

(٢) فى رواية : « عفوا » .

وقالوا له : أُقض المرأةَ حقَّها . فجعل يحلِف أنه ما يَعرفها ولا رآها قَطُّ . فكشفت وَجهها وقالت : وَيلك ! ما تَعرفنى ؟ فجعل يَحلف مُجتهداً أنه ما رآها قَطُّ ولا يَعرفها، حتى أُستفاض قولُها وقولُه ، وأُجتمع الناسُ وكثرُوا وسَمعوا ما دار بينهم وكثر لَغَطهم . ثم قامت وقالت: ياعدو الله ! صدقتَ ، والله مالى حَقٌّ ولا تَعرفنى، وقد حلفتَ على ذلك ، وأَنا أُم جعفر ، وأنت تقول : قلتَ لأُم جعفر ، وقالت لى أُم جعفر ، فى شعرك . فخجل الأحوصُ وأنكسر عن ذلك ، وبرئتْ أُم جعفر عنـــدهم (١) .

---

(١) ثم ساق أبو الفرج أيضاً شيئاً من أخبار عاتكة بنت شهدة . وهى مغنية لها ألحان . فربها ابن واصل ولم يجرد لها ، للسبب الذى ذكره قبل فى هذا الجزء .

أخبار أبي ذؤيب الهذلي

نسبه

هو خُويلد بن خالد بن مُحرِّث بن زُبَيد بن مَخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تَميم بن سعد بن هُذيل بن مُدركة بن اليأس بن مُضر بن نِزار .

طبقته وإسلامه

وهو أحد المُخضرمين ممن أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم وحَسُن إسلامه . وكان من فحُول الشُّعراء ، فصيحاً كثير الغَريب ، متمكِّناً في الشِّعر .

تقدمه على الشعراء

ويقال : إن أبا ذُؤيب تقدَّم على جميع شُعراء هُذيل بقصيدته العينيّة التي يَرثي بها بَنيه ، وأولها :

أمِن المَنون وريْبه تتوجَّعُ ... والدَّهرُ ليس بمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ

يقول فيها :

قالت أميمةُ ما لجسمك شاحباً ... منذ ابْتُذلتَ ومثلُ مالك يَنفع

أم ما لجنبك لا يُلائم مضجعاً ... إلّا أَقَضَّ عليك ذاك المَضجع

فأجبتُها أنْ ما بجسمي أنّه ... أوْدى بَنيّ من البلاد فودَّعوا

وهذه يقولُها في بنين له خمسة أصيبوا في عام واحد بالطاعون .

خروجه مع عبد الله بن سعد لغزو إفريقية ثم عودته وموته بمصر

وذكر أنه خرج أبو ذؤيب مع ابنه وابن أخٍ له حتى قَدموا على عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال له : أى العَمل أفضل ؟ قال : الإيمان بالله ورسوله . قال : قد فعلتُ ، فأيُّه أفضلُ بعده ؟ قال: الجهاد في سبيل الله . فقال : ذلك كان عليّ و إنى لا أرجو جنَّة ولا أخاف ناراً . ثم خَرج فغزا أرض الرُّوم مع المُسلمين في جُند عبد الله بن سَعد بن أبي سَرح ، أحد بني عامر بن لؤى ، وذلك في سنة ست وعشرين، في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ففتَح الله عليهم إفريقية .

حديث ابن الزبير في هذه الحرب

فحكى عبدُ الله بن الزُّبير رضى الله عنهما ، وكان في ذلك الجَيش وعُمره ستٌّ

وعشرون سنة — وقيل : أربع وعشرون سنة — قال : أحاط صاحبُ إفريقية ، وهو ملك إفرنجة ، بنا فى مائة ألف وعشرين ألفاً ، ونحن فى عشرين ألفا ، فضاق المسلمون من ذلك واختلفوا فى الرأى . فدخل عبد الله بن سعد فُسطاطه يخلو فيه ويفكّر. قال عبدُ الله بن الزُّبير : فرأيت عَوْرة من صاحب إفريقية ، والناس على مَصافهم ، رأيتُه على بِرْذون أشهب خلف أصحابه مُنقطعاً عنهم ، ومعه جاريتان تُظِلّان عليه من الشَّمس بريش الطَّواويس . فجئتُ فُسطاط عبد الله بن سَعد فطلبتُ الإذن عليه من حاجبه . فقال : إنه فى شأنكم وقد أمرنى أن أمسك الناسَ عنه . قال : فدُرْت فأتيتُ مُؤخَّر فُسطاطه فرفعتُه ، فإذا هو مُستلقٍ على فراشه . ففَزِع وقال : ما أَدخلك علىّ يابن الزُّبير؟ فقلت : إنى رأيتُ عورةً من عدوِّنا فرجوتُ الفُرصة فيها وخَشِيتُ فَوَاتَها ، فاندب الناسَ إلىّ . فقال : وما هى ؟ فأخبرتُه . فخرج فقال : أيها الناس ، انتدبوا مع ابن الزُّبير إلى عدوّكم . فاخترتُ ثلاثين فارساً ، فقلت : إنّى حاملٌ فاضربوا عن ظَهرى ، فإنى سأَكفيكم مَن ألقى إن شاء الله تعالى. فحملتُ فى الوجه الذى هو فيه ، فحملوا فذبُّوا عنّى حتى خَرقتُ صفوفهم إلى أرض خالية. وتبينتُه فصمَدْتُ صَمْده . فوالله ماحسب إلّا أنى رسولٌ ، ولا ظَن أكثرُ أصحابه إلا ذاك ، حتى رأى ما بى من أثر السّلاح ، فثنَى بِرْذونه هارباً ، فأدركتُه فطعنتُه فسقط ، ورميتُ بنفْسى عليه ، واتقتْ جاريتاه عنه السَّيفَ فقُطعت يدُ إحداهما . وأَجهزتُ عليه . ثم رفعتُ رأسه فى رُمحى ، وجال أصحابُه وحَمل المسلمون فى ناحيتى وكبَّروا ، فقتَلوهم كيف شاءوا وكانت الهزيمةُ . فقال لى عبدُ الله بن سعد : ما أجد أحداً أحقّ بالبشارة منك . فبَعثنى إلى عُثمان. وقَدِم مَروان[1] بعدى على عثمان حين أُطمأنوا وباعوا المَغْنم وقسموه. ووضَع عثمانُ عن مَروان خمسمائة ألف ، كان اشترى بها خُمس المَغنم . وكان ذلك مما تكلّم الناسُ فى عثمان بسَببه .

(١) هو مروان بن الحكم بن أبى العاص .

فقال عبدُ الرحمن بن حَنْبل بن مُليل ، أخو صَفوان بن أُمية بن خَلف الجُمحى لأُمه ، يذكر ما نقم به على عثمان ، رضى الله عنه :

أحلف بالله جَهـــد اليمـــي ... ن ما تَرَكَ الله شيئاً سُـدَى
ولـكن خُلقتَ لنـــا فِتْنـــةً ... لـكى نُبْتَلى فِيك أو تُبتلى
دعوتَ الطَّريد (١) فأَدْنيتَه ... خـــلافاً لسُنة مَن قَد مضَى
وأعطيت مَروان خُمْس العبـــا ... د ظُلمـــاً لهم وحَمَيْتَ الحِمَى
ومالاً أَتاك به الأشـــعرىّ ... مِن الفَيء أعْطيتَـــه مَن دنا
و إنّ الأمينَيْن قـــد بَيّنا ... مَنارَ الطَّريق عليـــه الهُدى
فمـــا أَخـــذَا دِرْهماً غِيـــلةً ... ولا قَسّما دِرهماً فى هَـــوى

والمال ، الذى ذُكر أن الأشعرى جاء به ، مالٌ كان أبو موسى قَدم به من العِراق على عثمان ، فأَعطى عبدَ الله بن أَسِيد بن أبى العِيص منه مائة ألف درهم — وقيل : ثلثمائة ألف درهم — فأنـكر الناس ذلك .

وذُكر أن عبد الله بن الزُّبير لمّا قَدِم بالبشارة فى هذه السنة — أعنى سـنة ست وعشرين — بُشِّر عند مَقدمه بأُبنه خُبيب بن عَبد الله ، و بأَخيه عُروة بن الزُّبير . وخُبيب أكبرهما .

خبر آخر فى موته

وذُكر أن عبد الله بن سَعد لمّا بَعث ابنَ الزَّبير بخبَر البشارة بَعث معه أبا ذُؤيب الهُذلى فى جماعة ، فلما قَدموا مِصْر مات أبو ذُؤيب بها — وقيل : بل مات أبو ذؤيب بإفريقية ، وأنه أخذه الموتُ لمّا قَفل المسلمون من الغَزاة — فأراد ابنُه وابن أخيه أن يتخلّفا عليه جميعاً ، فمنَعهم صاحبُ السَّاقة وقال : ليتخلَّف عليـــه أحدُكما وليعلمْ أنه مقتول . فـكلاهما أراد أن يتخلّف عليه . فقال لهما أبو ذؤيب :

(١) الطريد : هو الحكم بن العاص بن أمية ، وكان يفشى سر النبى صلى الله عليه وسلم فنفاه عن المدينة ، فنزل الطائف فلم يزل به حتى رده عثمان .

أقترعا . فوقعت القُرعة على ابن أخيه ، فتخلّف عليه ، ومضى ابنُهُ مع الناس .

فكان أبو عبيد ، ابن أخيه يُحدث ، قال : قال لى أبو ذُؤيب : احْفِر ذلك الجُرف برُمحك ، ثم اعضِد[1] من الشَّجر بسيفك ، ثم اجْرُرْنى إلى هذا النَّهر فإنك لا تَفْرَغ حتى أفرغ ، فاغسلنى وكفِّنى بكَفنى ، ثم اجعلنى فى حُفرتى وانثِل[2] علىّ الجُرفَ برُمْحك ، وألْقِ علىّ العُصون والحِجارة ، ثم اتْبع الناسَ فإن لهم رَهْجةً[3] تَراها فى الأفق إذا أمسيت كأنها جَهَامة .[4] قال : فما أخطأ مما قال شيئاً . ولولا نعْتُه لم أَهْتد لأثر الجيش .

شعره فى موته

وقال وهو يجود بنفسه :

أبا عُبيد رُفِع الكِتابُ ... واقترب الموعدُ والحِسابُ

وعند رَحْلِى جَملٌ نُجاب ... أحمرُ فى حارِكه[5] انْصباب

ثم مضيتُ حتى لحقتُ الناس . فكان يقال : إن أهل الإسلام أبعدوا الأثر فى بلد الرُّوم ، فما كان وراء قبر أبى ذُؤيب قبرٌ يُعلم لأحد من المُسلمين .

* * *

شىء عن حكم الوادى

ثم ذكر أبو الفرج حَكم الوادى ، وهو الحكم بن مَيمون ، مولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وعاش إلى أيام الرَّشيد . ولم أختر من أخباره شيئاً .

(١) عضد : قطع .
(٢) انثل على الجرف ، أى أخرج ترابه فأهله على .
(٣) الرهجة : ما أثير من الغبار .
(٤) الجهامة : السحابة لا ماء فيها . والعبارة فى أصول الأغانى : « إذا مشيت كأنها جهامة »
(٥) الحارك : أعلى الكاهل .

أخبار ابن جامع

نسبه

هو إسماعيل بن جامع بن إسماعيل بن عبد الله بن المطّلب بن أبى وَدَاعة بن ضُبيرة بن سُعيد بن سَعد بن سَهم بن عمرو بن هُصَيص بن كَعب بن لُؤى ابن غالب بن فِهر .

أبو وداعة والمطلب ابنه

وكان أبو وداعة بن أبى ضُبيرة أسيراً كافراً يوم بدر ، وفداه ابنُه المُطلب . وكان المُطلب بن أبى وَدَاعة رجلَ صِدْق . ورَوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الحديثَ .

كنية ابن جامع وشىء من أخبار أمه

ويُكنى ابن جامع أبا القاسم .وأُمه امرأة من سَهم، وتزوَّجت بعد أبيه رجلاً من أهل اليمن، فذُكر أنها أتت مَعن بن زائدة الشَّيبانى ، وابن جامع معها وهو صغير يَتبعها ويَطأ ذَيلها ، ومَعن يومئذ على اليمن ، فقالت : أصلح الله الأمير ، إنّ عَمِّى زوَّجنى زوجاً ليس بكُفء ، ففرِّق بينى و بينه . فقال : ومَن هو ؟ قالت : ابنُ ذى مُناجب . قال : علىّ به . فدَخل أقبحَ من خَلْق الله تعالى وأشوْهه خَلقاً . فقال : مَن هذه منك ؟ قال : امرأتى . قال : خَلِّ سبيلَها . ففعل . فأطرق معنٌ ساعةً ثم رفع رأسه ، فقال :

لَعمرى لقد أصبحتَ غيرَ مُحبَّبٍ ... ولا حَسَنٍ فى عَيْنها ذا مُناجِبِ
فما لُمْتُها لمّا تَبيّنتُ وجهَه ... وعيناً له حَوْصاء من تحت حاجب
وأنفاً كأنف البَكْر يقطُر دائباً ... على لِحية عَصْلاء[1] شابتْ وشارب

---

(١) عصلاء : معوجة .

أتيتَ بها مثل المَهاة [1] تسُومها فيا حُسْنَ مَجلوب ويا قُبح جالب

وأمر لها بمائتى دينار وقال : تجهَّزى بها إلى بلادك .

من ورعه

وكان ابنُ جامع من المُغنين المُجيدين، وكان من أحفظ خَلق الله لكتاب الله تعالى ، وأعلمه بما يحتاج إليه ، وكان يخرج من منزله مع الفَجر يوم الجمعة فيصلِّى الصُّبح ثم يُصفّ قدَميه حتى تَطلُع الشمس ، ولا يُصلِّى الناسُ الجمعة حتى يختم القرآن ، ثم ينصرف إلى منزله .

مع أبى يوسف القاضى بباب الرشيد

قيل : وكان ابن جامع حسنَ السَّمت كثيرَ الصلاة ، قد أخذ السجودُ جبهتَه . وكان يَعتمّ بعمامة سوداء على قَلَنْسوة ويَلبس لباس الفُقهاء [2] وعليه زىّ أهل الحجاز. فقَدِم قَدْمةً من مكة على الرشيد . فبينا هو واقفٌ على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن عليه ، فوقف على ما كان يَقف النـاسُ عليه فى القَديم حتى يأذنَ لهم أو يَصْرفهم. فأقبل أبو يوسف القاضى صاحب أبو حنيفةَ رحمهما الله بأصحابه أهل القَلانس. فلما هجم على الباب نظر إلى رجل يقف إلى جانبه ويُحادثه ، فوقعت عينُه على ابن جامع ، فرأى سَمْته وحلاوة هيئته. فجاء أبو يوسف فوقف إلى جانبه ثم قال: أمتع الله بك، توسّمتُ فيك الحجازيّة والقُرشية . قال: أصبت. قال: فمن أى قُريش أنت؟ قال : من بنى سَهم. قال : فأى الحرَمين منزلك ؟ قال . مكة . قال : فمن لقيتَ من فُقهائهم؟ قال : سل عمّن شئت . ففاتحه الفِقهَ والحديث فوجد عنده ما أحب، فأُعجب به . ونظر الناس إليهما فقالوا : هذا القاضى قد أقبل على المُغنِّى ! وأبو يوسفُ لا يعلم أنه ابنُ جامع . فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه ! ثم قالوا : لا ، لعلّه لا يعود إلى مُواقفته بعد اليوم ، فلِمَ نَغُمُّه . فلما كان الإذن الثانى ليحيى، غدا عليه الناسُ

(١) فى الأغانى : « تسوقها » .

(٢) العبارة فى الأغانى : « ويركب حمارا مريسيا فى زى أهل الحجاز » .

وغدا عليه أبو يوسف ، فنَظر يطلُب أُبنَ جامع فرآه ، فذهب فوقف إلى جانبه ، فحادثه كما فعل . فلما أنصرف قال له بعضُ أصحابه : أيها القاضى ، أتعرف هذا الذى تُواقف وتحادث ؟ قال : نعم ، رجل من قُريش من أهل مكة من الفقهاء . فقالوا : هذا أُبن جامع المُغنى . قال : إنّا لله ! قالوا : إن الناس قد شَهَروك بمُواقفته ، فأنكروا ذلك مِن فعلك . فلما كان الإذن الثالث جاء أبو يوسف ونظر إليه فتنكّبه ، وعرف أُبنُ جامع أنه قد أُنذر به ، فجاء حتى وقف ، فسلّم عليه . فردّ عليه السلام بغير ذلك الوجه الذى كان يَلقاه به ، ثم انحرف عنه . فدنا منه أُبنُ جامع ، وعرف الناسُ القِصة . وكان أُبنُ جامع جهيراً ، فرفع صوتَه ثم قال : يا أبا يوسف ، ما لك تَنحرف عنّى ! أىّ شىء أنكرت ؟ قالوا ، لك : أُبنُ جامع المُغنى فكرهتَ مواقفتى ! أسألك عن مسألة ثم أُصنع ما شئت . ومال الناسُ فأقبلوا نحوهما يَسمعون.فقال : يا أبا يوسف ، لو أن أعرابيًّا جِلفا وقف بين يديك فأنشدك بجَفاء وغِلظة من لسانه فقال :

يا دارَمية بالعَلياء فالسَّند أقوت وطال عليها سالُف الأبدِ

أكنتَ ترى بذلك بأساً ؟ فقال : لا ، قد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه سمع الشِّعر ـ ورَوى فى الحديث ـ قال أُبن جامع : فإن قلتُ أنا هكذا ، ثم أندفع يتغنّى فيه حتى أنى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف ، هل رأيتَنى زِدْتُ فيه أو نقصتُ منه ؟ قال : عافاك الله ! أعفنا من هذا . فقال : يا أبا يوسف، أنت صاحب فُتْيا ، ما زِدْتُه على أن حسَّنتُه بألفاظى فحسُن فى السماع ووصل إلى القَلب . ثم تَنحّى عنه أُبن جامع .

جاء به ابن الربيع لما ولى الهادى

وذكر أنّ أُبن جامع والحرّانى[1] كانا مُنقطعَيْن إلى موسى الهادى فى أيام أبيه

(١) هو ابراهيم الحرانى ، كان من ندماء الهادى وقيمه على خزائن الأموال .

المهدىّ ، وكره المهدىُّ انقطاعهما إلى ابنه فضربهما وطردهما . فلما أفضت الخلافةُ إلى الهادى أعطى الفضلُ بن الربيع لبريدٍ له دَنانير ، وقال : الحق بمكة فأْتنى بابن جامع واحمله فى قُبة ولا تُعلمنّ به أحداً . ففعل ذلك وحمله إليه . فأنزله الفضلُ بن الرَّبيع واشترى له جاريةً . وكان ابن جامع صاحبَ نساء . فذكره موسى الهادى ذاتَ ليلة فقال لجلسائه : أما فيكم أحد يُرسل إلى ابن جامع ، وقد عرفتم موقعه منِّى! فقال له الفضلُ بن الرَّبيع : هو والله عندى يا أمير المؤمنين ، وقد فعلتُ الذى أردتَ . فبعث إليه فأُتى به فى الليل . فوصل الفضلَ فى تلك الليلة بعشرة آلاف دينار ، وولّاه حِجابته .

أطرب الرشيد بصوت أخذه عن سوداء فأجازه

وحكى إسماعيل بن جامع قال :

بينا أنا بغُرفة لى باليمن وأنا مُشرف على مَشْرَعة[1] إذ أقبلتْ أَمةٌ سوداء على ظهرها قِرْبة ، فملأتْها ووضعتْها عند المَشرعة لتستريح ، وجلستْ فغنتْ :

فرُدِّى مُصابَ القَلب أنتِ قَتلتِه ... ولا تُبْعِدى فيما تجشَّمتِ كُلْثُمَا
إلى الله أشكوا بُخْلَها وسَماحتى ... لها عَسَلٌ منِّى وتبذُل عَلْقما
أَبى الله أَن أُمسى ولا تذكُرينى ... وعَيْناى مِن ذكراكِ قد ذَرفتْ دَما
أَبيتُ فما تَنفكّ لى منكِ حاجةٌ ... رَمى الله بالحُبّ الذى كان أَظْلما

قال : ثم أخذت قِربتها لتمضى ، فاستفزّنى من شهوة الصوت مالا قِوام لى به ، فنزلتُ إليها وقلت لها : أعيديه . فقالت : أنا عنك فى شُغل بخَراجى . قلت: وكم هو؟ قالت : دِرهم فى كُل يوم . فقلت : هذان دِرهمان ، ورُدّيه علىّ حتى آخُذه منك . فأعطيتُها درهمين . فقالت : أمّا الآن فنَعم ، فلم تبْرح حتى أخذتُه منها . وانصرفتُ فلهوتُ به يومى . وأصبحتُ من غد لا أذكر منه حرفاً ، فإذا

(١) المشرعة : مورد الشاربة .

أنا بالسوداء قد طَلعت ففعلتْ كفِعلها بالأمس ، فلما وضعت القربةَ تغنَّت غيرَه . فغدوتُ فى إثرها ، فقلت : يا جارية ، بحقّى عليك رُدِّى علىّ الصوتَ فقد ذَهبت عنِّى منه نَغْمة . قالت : لا والله ، ما مثلُك تَذهب عنه نَغمة ، أنت تَقيس أولَه على آخره ، ولـكنك أُنسيتَه ، ولستُ أفعل إلّا بدرهمين آخرَيْن . فدفعتُهما إليها ، فأعادته علىّ حتى أَخذتُه ثانيةً . فقالت: إنك تَستكثر أربعة دراهم ، وكأنى بك قد أصبت به أربعة آلاف دينار .

فكنتُ عند هارون الرشيد يوماً ، وهـــو على سريره ، فقال : مَن غنّانى فأَطربنى فله ألف دينار . وقُدّامه أكياس فى كُل كيس ألف دينار . فغنَّى القومُ وغنيتُ ، فلم يَطرب . حتى دار الغناء إلىّ ثانيةً ، فغنيتُه صوتَ السّوداء ،فَرمى إلىّ بكيس وقال : أعِدْه . ففعلتُ . فَرمى إلىّ بثَانٍ ، ثم قال : أعده . فأعدتُه . فرمى إلىّ بثالث ، وأمسك . فضحكتُ . فقال : ما يُضحكك ؟ فقلت : لهذا الصوت حديثٌ عَجيبٌ يا أمير المُؤمنين. فحدّثتُه به وقَصصت عليه القصة . فرمى إلىّ برابع، وقال : لا تُكذِّب قولَها .

شعر للسموءل فيه لابن جامع غناء

قلت : وذَكر أبو الفَرج من الشِّعر الذى لابن جامع فيـــه صنعةٌ ، شـعرَ السموءل بن عادياء الغسّانى اليهودىّ ، صاحب تَيماء،[1] بالحِصْن المَعروف بالأَبْلق — وقيل : إن الشعر لابنه شُريح — وهو :

تُعيِّرنا أنّا قليـــلٌ عديدُنا ... فقلتُ لها إنّ الكِرام قَليلُ

وما ضَرَّنا أنّا قليـــلٌ وجارُنا ... عَزيزٌ وجارُ الأكثرين ذَليل

وإنّا لقـومٌ لا نَرى القَتْل سُبَّةً ... إذا ما رأتْه عامـرٌ وسَـــلول

---

(١) تيماء : بليدة فى أطراف الشام .

يُقرِّب حُبُّ المَوت آجالَنا لنا وتَكرهُه آجالُهم فتَطُول

فاُقتضى ذلك ذِكر خبر السَّموءل وابنه شُريح، فنذكره :

خبر السموءل وابنه شريح

كان السموءل من يَهود يَثْرب، وهو الذى يُضرب به المثل فى الوفاء. وخَبره : أن امرأ القيس بن حُجر الكِندىّ أودع السَّموءل أدراعا، فأتاه الحارثُ بن ظَالِم — وقيل : الحارث بن أبى شَمِر الغسّانى — ليأخذها منه، فتحصّن منه السَّموءل، فأخذ ابناً له غُلاماً وناداه : إما أن تُسلم الأدراع وإما أن أقتُل ابنك. فأبى السموءلُ أن يُسلِّم الأدراع إليه. فضرب الحارث وسطَ الغلام بالسيف فقَطعه بنصفَيْن. فقال السموءلُ فى ذلك :

وفيتُ بأدرُعِ الكِندىّ إنِّى إذا ما ذُمَّ[1] أقوامٌ وَفيتُ

وأوصى عادِيَا يوماً بألّا تُهدِّمَ يا سموءلُ ما بَنيت

بَنى لى عاديا حِصْناً حَصِينا وماءً[2] كلما شِئتُ اُستَقَيْت

ومنها :

أعاذلتى ألاَ لا تَعذُلينى فكم من أمر عاذلة عَصَيتُ

دَعينى وأرشُدى إن كنتُ أغوَى ولا تَغْوَىْ زَعمتِ كما غَويْت

أعاذلَ قد طَلبتِ اللَّومَ[3] حتى لو أنِّى مُنْتَهٍ لقد اُنْتهيت

وصَفراءِ المَعاصم قد دَعَتْنى إلى وَصْلٍ فقلتُ لها أَبيت

وزِقٍّ قد جَررتُ إلى النَّدامَى وزِقٍّ قد شربتُ وقدسقيت

وحتى لو يكون فتَى أُناسٍ بكى من عَذل عاذلةٍ بكَيت

أسر الأعشى وشفاعة شريح فيه

وذُكر أنّ الأعشى هجا رجلاً من كَلب، فقال :

(١) فى الأغانى : « ما خان » .

(٢) ويروى : « عيناً » و « بئراً » .

(٣) طلبت اللوم ، أى جعلته شغلك وأكثرت فيه .

بنو الشَّهر الحَرام فلستَ منهم ولستَ من الكرام بنى عُبَيْدِ
ولا مِن رَهْط جَبّار بن قُرْط ولا من رَهْط حارثةَ بن زَيد

وهؤلاء كُلهم من كَلْب . فقال الكَلبى : أنا ، لا أبالك ! أشرفُ من هؤلاء . فَسبّه الناسُ بعدُ بهجاء الأعشى . وكان مُتغيِّظاً عليه . فأغار الكَلبىُّ على قوم قد بات بهم الأَعشى ، فأسر منهم نفراً ، وأَسر الأعشى وهو لا يَعرفه . فجاء حتى نَزل بشُرَيْح بن السَّموءل بن عادِياء الغسّانى ، صاحب تَيماء ، بحِصْنه الذى يقال له : الأَبلق ، فمر شُرَيْح بالأَعشى . فنادى به الأَعشى بقوله :

شُرَيْحُ لا تَتْرُكَنِّى بعد ما عَلِقَتْ حبالُك اليومَ بعد القِدّ[1] أظفارى
قد جُلْتُ ما بين بانِقْيا[2] إلى عَدَنٍ وطال فى العُجْم تَكْرارى[3] وتَسْيارى
وكان أكرمَهم عهداً وأوثقهم عَقداً أبوك بُعرف غير إنكار
كالغيثِ ما استمطروه جادَ وابلُه وفى الشدائد كالمُستأسد الضَّارى
كُنْ كالسَّموءل إذ طاف الهُمام به فى جَحْفلٍ كسوَاد اللَّيل جرّار
إذ سامه خُطَّتَىْ خَسْفٍ فقال له قُلْ ما تشاء فإنِّى سامعٌ حار
فقال غَدْرٌ وثُكْلٌ أنتَ بينهما فاختَرْ وما فيهما حَظٌّ لمُختار
فشَكَّ غيرَ طويلٍ ثم قال له أقتُل أسيرَك إنِّى مانعٌ جارى
وسوف يُعْقِبُنيه إن ظَفِرتَ به ربٌّ كريمٌ وبيضٌ ذاتُ أطهار
لا سِرُّهن لدينا ذاهبٌ هَدَراً وحافظاتٌ إذا استُودِعْن أسرارى
فاختارَ أدراعَه كى لا يُسَبَّ بها ولم يكنْ وعدُه فيها[4] بختّار

(١) القد : القيد .
(٢) بانقيا : ناحية بالكوفة .
(٣) فى الديوان : « ترادى » .
(٤) الختار : الغادر .

قال : فجاء شُرَيْح إلى الكَلبى فقال له : هَب لى هذا الأَسير المغرور.[1] فقال : هو لك . فأَطلقه وقال له : أقم عندى حتى أُكرمك وأَحْبوك . فقال له الأعشى : إن من تمام صَنيعتك أَن تُعطينى ناقةً ناجيةً[2] وتُخلِّينى الساعةَ . فأَعطاه ناقةً فركبها ومَضى من ساعته . وبَلغ الكَلبىَّ أن الذى وهب لشُرَيْح هو الأعشى ، فأرسل إلى شريحْ : أبعث لى بالأسير الذى وهبتُ لك حتى أحبوَه وأُعطيه . فقال : قد مَضى . فأرسل الكَلبىُّ فى طَلبه ، فلم يَلْحقه .

---

(١) فى الأغانى : « المضروب » . وصححها الشنقيطى بقلمه : « المضرور » .

(٢) ناجية : سريعة .

أخبار أبي سفيان بن حرب

اسمه

هو صَخر بن حَرب بن أُمية بن عبد شَمس بن عبد مَناف بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرة .

أم حرب

وأُم حَرب بنتُ أبي هَمْهمة بن عبد العزّى بن عامر بن عميرة بن وَديعة بن الحارث بن فِهْر .

أمه

وأُم أبي سُفيان صفيّة بنت حَزن بن بُجير بن الهُزَم بن رُوَيْبة بن عبدالله بن هلال بن عامر بن صَعصعة . وهى عمة أُم المُؤمنين مَيمونة . وأُختها أُم الفَضل أُم بنى العبّاس بن عبد المُطلب .

شيء عن حرب ووفاته

وكان حَرب بن أُمية قائدَ بَنى أُمية فى الجاهلية .

وذُكر أن سبب وَفاة حَرب بن أُمية أنه لما انصرف هو وإخوتُه من حَرب عُكاظ مَرّ بالقُريَّة [1] ـ وهى إذ ذاك غيضة شجر مُلتفّ لا يُرام ـ فقال له مِرداس ابن أبى عامر : أما تَرى هذا الموضع ؟ قال : بلى . فما له ؟ قال : نِعْم المُزْدرع هو ! فهل لك أن نَكون شَريكين فيه ونُحرِّق هذه الغَيضة ثم نَزدرعه بعد ذلك ؟ قال : نَعم . فأضرما النار فى الغيضة . فلما اُستطارت وعلا لهبُها سُمع من الغَيضة أنينٌ وضجيجٌ كثير . ثم ظَهرت حيّاتٌ بِيضٌ تَطير حتى قطَعتْها وخرجتْ منها . فقال مرداس بن أبى عامر فى ذلك :

إنّى اُنتخبتُ لها حرباً و إخوتَه ... إنّى بحَبْلٍ وثيقِ العَهد [2] دَسّاسُ

إنى أُقَوِّم قبل الأمر حُجَّته ... كيما يقالَ ولىُّ الأمر مِرداس

---

(١) القرية : موضع فى ديار بنى سليم .

(٢) فى الأغانى : « العقد » .

قيل : وسَمِعوا هاتفاً يقول لما أُحترقت الغَيضةُ :

ويلٌ لحربٍ فارساً مُطاعناً مُخالساً
ويل لعمرو فارسا إذ لبسوا (١) القَلانسا
لنقتلنْ بقَتله جَحاجحاً عَنابسا

فلم يلبث حربٌ ومرداسٌ أن ماتا .

مكانته فى قريش وفقء عينيه

وكان أبو سُفيان بن حَرب سيّداً من سادات قُريش فى الجاهليّة ، ورأساً من رءوس الأحزاب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل إسلامه . وهو صاحب العَير يوم بدر ، وقائد المشركين يوم أحد والخندق ، وأسلم يوم فتح مكة ، وشهد مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يوم حُنين والمَشاهدَ كُلها بعده . وفُقئت عينُه يوم الطائف ، فلم يَزل أَعور إلى يوم اليَرموك ، ففُقئت عينُه الأُخرى يومئذ فَعمِى .

قوله فى زواج ابنته أم حبيبة من النبى صلى الله عليه وسلم

وكانت أُبنته أُم حبيبة إحدى أزواج النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأبو سفيان يومئذ مُشركٌ يُحارب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقيل له : إنّ محمداً قد نَكح أُبنتك . فقال : ذاك الفَحل الذى لا يُقْدَع أَنفُه .

واسم أُم حَبيبة رَملة . وقيل : هند . والأول أصح .

وذُكر أنه بعد إسلامه سُمع يُمازح النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم فى بيت أُبنته أُم حبيبة ويقول : إن هو إلا أن تركتُكَ فتركتْكَ العربُ ،فما أُنتطحتْ جمّاء (٢) ولا ذاتُ قَرن . ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يَضحك ويقول له : أنت تقول ذلك يا أبا حَنظلة !

هو والنبى صلى الله عليه وسلم وقد أبطأ إذنه

وقيل : أذن رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يوماً للناس ، وكان آخر مَن دخل

(١) فى رواية : « القوانسا » : جمع قونس ، وهو أعلى البيضة .
(٢) الجماء : الشاة لا قرن لها .

عليه أبو سُفيان بن حَرب ، فقال : يا رسول الله ، لقد أَذنت للناس قَبلى حتى ظننتُ أن حِجَارة الخَنْدمة [١] ليُؤذن لها قَبلى . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أما والله إنك والناسَ لكما قال الأول : كُل الصَّيد فى جَوف الفَرا [٢] . أى كل شىء لهؤلاء من المَنزلة فإن لك وحْدَك مثله .

هو وهرقل عن النبى صلى الله عليه وسلم

وحدث ابن عبّاس قال : حدّثنى أبو سفيان قال :

كُنّا قوماً تجاراً ، وكانت الحربُ بيننا و بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد حصرتْنا حتى نَهكت أموالنا . فلما كانت الهُدنة ، هُدنة الحُديبيـة ، بيننا و بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، خرجتُ فى نفر من قُريش إلى الشام، وكان وَجْهُ مَتْجرنا غَزّة ، فقَدِمْناهـا حين ظَهر هرقلُ على من كان فى بلاده من الفُرس، فأخرجهم منها ورُدّ عليه صليبُه الأعظم ، وقد كانوا اُستلبوه إياه . فلما بلغه ذلك ، وكان منزله بحِمْص من أرض الشام ، خرج منها يَمشى إلى بيت المَقدس ليصلِّى فيه شكراً لله ، تُبسط له البُسط وتُطرح له عليها الرَّياحين ، حتى اُنتهى إلى إيلياء فصلَّى بها . فأصبح ذَات غَداة وهو مَهموم يُقلِّب طرفَه إلى السماء . فقالت بَطارقته : أيها الملك ، لقد أصبحتَ مهموماً . فقال : أجل . فقالوا : وما ذاك ؟ قال : أُريت فى هذه الليلة أن مُلْك الخِتان ظاهر . فقالوا : فوالله ما نَعـلم أُمةً من الأُمم تَختتن إلا اليَهود ، وهم تحت يَديك وسلطانِك ، فإن كان قد وَقع هذا فى نَفسك منهم فاُبعث فى مَملـكتك كُلِّها ولا يبقى يهودىّ إلا ضُربتْ عنقه ، فتستريح من هذا الهمّ . فإنهم فى ذلك من رأيهم يُدبِّرونه إذ أتاهم رسولُ صاحِب بُصْرى برجلٍ من العرب قد وَقع إليهم . فقال : أيها الملك ، إن هذا رجل من أهل العرب من أهل

(١) الخندمة : جبل بمكة .

(٢) الفرا : الحمار الوحشى .

الشاء والإبل يحدِّثك عن حَدَثٍ كان فى بلاده ، فاسـأله عنه . فلما انتهى قال لترجُمَانه : سَلْه ما هذا الخبر الذى كان فى بلاده ؟ فسأله . فقال : رجلٌ من العَرب من قُريش خَرج يزعُم أنه نبىّ ، وقد اتبعه أقوام وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم مَلاحمُ فى مَواطن كثيرة ، فخرجتُ من بلادى وهم على ذلك . فلما أخبره الخبر قال: جَرِّدوه ، فإذا هو مَختون . فقال : هـذا والله الذى أُريت لا ما يقولون . أَعطوه ثَوبه . انطلق لشأنك . ثم دعا صاحب شُرطتـه فقال له : اقْلب لى الشأم ظهراً لبطن حتى تأتينى برجل من قَوم هذا أسأله عن شأنه .

قال أبو سفيان : فوالله إنى وأصحابى لبغَزة إذ هَجم علينا صاحبُ شرطته فسألنا : من أنتم ؟ فأخبرناه . فساقنا إليه جميعاً . قال أبو سفيان : فوالله ما رأيت رجلاً قطُّ أزعم أنه كان أدهى من ذلك الأقلف ـ يُريد هرقل ـ فلما انتهينا إليه قال : أيكم أمسّ به رحماً ؟ فقلت : أنا . فقال : أَدنوه منِّى. فأَجلسنى بين يديه ، ثم أَمر أصحابى فأَجلسهم خلفى ، وقال : إن كذب فردُّوا عليه . قال أبو سفيان : فلقد عرفتُ أن لو كذبت ما ردّوا علىّ ، ولـكن كنتُ امرأً سيّداً أتكرم[1] وأَستحى من الـكَذب ، وعرفت أنّ أَدنى ما يكون فى ذلك أن يردّوا علىّ ثم يتحدثوا عنّى بمكة ، فلم أكذبه . فقال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خَرج فيكم . فزهَّدت له شأنه وصغَّرت له أَمره ، فوالله ما التفت إلى ذلك منِّى وقال : أخبرنى عما أسألك عنه من أَمره . فقلت : سَلنى عما بدا لك . فقال : كيف نَسبه فيكم ؟ قلت مَحضٌ ، من أوسطنا نسباً . قال : فأخبرنى هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فيتشبّه به ؟ فقلت : لا . قال : فأخبرنى هل كان له فيكم مُلك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردُّوا عليه مُلـكه ؟ فقلت : لا . قال : أخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟ قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، فأما ذوو الأسنان

(١) فى الأغانى : « أتبرم عن الكذب » .

من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : فأخبرنى مَن يَصحبه : أيُحبه ويَلزمه أم يَقْليه و يفارقه ؟ قلت : قلما صَحِبه رجلٌ ففارقه . قال: فأخبرنى عن الحرب بينكم و بينه . فقلت : سجال ، يُدال علينا ونُدال عليه . قال : فأخبرنى : هل يَغدر ؟ فلم أجد شيئاً أغتمزُ فيه إلاهى ، فقلت : لا، ونحن منه فى هُدنة [1] لا نأمن غَدره. قال: فوالله ماالتفت إليها منّى. فأعاد علىّ الحديث، فقال: زعمتَ أنه من أمحضكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النّبىّ ، لا يأخذه إلا من أوسط قومه . وسألتك : هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله يتشبّه به ؟ فقلتَ : لا . وسألتك : هل كان له مُلك فاُستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردّوا عليه ملكه ؟ فقلتَ: لا. وسألتك عن أتباعه ، فزعمتَ أنهم الأحداث والمَساكين والضعفاء ، وكذلك أتباع الأنبياء فى كُل زمان . وسألتك عمّن يَتبعه : أيُحبه و يَلزمه أم يَقْليه و يُفارقه ؟ فزعمتَ أنه قَلَّ مَن يَصحبه فيُفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتَخرج منه . وسألتك كيف الحربُ بينكم ؟ فزعمتَ أنها سجال يُدال عليكم وتُدالون عليه . وكذلك تكون حُروب الأنبياء ولهم العاقبة . وسألتك : هل يَغدر ؟ فزعمتَ أنه لا يَغدر. ولئن صدقْتنى ليغلبنّى على ما تحت قَدمى، ولوددتُ أنى عنده فأَغسل قدميه . الحَقْ بشأنك . فقُمت وأنا أضرب بإحدى يدى على الأُخرى وأقول : عبادَ الله، لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كَبشة ! [2] أصبح ملوك بنى الأصفر يخافونه فى سُلطانهم .

---

(١) يريد هدنة الحديبية ، وفى الأغانى : « فى مدة »

(٢) أمر : عظم . وابن أبى كبشة : رجل خالف قريشاً فى عبادة الأوثان فسموا النبى صلى الله عليه وسلم باسمه لخروجه عليهم .

إسلام أبى سفيان

روَى ابن عبّاس قال :

لما عَزم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على فَتح مكة خَرج لعَشر مَضَيْن من شَهر رمضان — قلت : يعنى سنة ثمانٍ من الهجرة — فصام وصام الناسُ معه ، حتى إذا كان بالكُديد أفطر . ثم مَضى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم حتى نَزل مَرَّ الظَّهران (١) فى عشرة آلاف من المُسلمين ، وقد عميت الأخبار عن قُريش ، ولا يأتيهم خَبر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ولا يَدرون ماهو فاعل . فخرج فى تلك الليلة أبو سُفيان بن حَرب ، وحَكيم بن حِزام ، و بُديل بن وَرقاء ، يتجسّسون و ينظرون هل يجدون خبراً ، أو يسمعونه .

قال العباس : فقلت : واصباح قُريش ! لئن دخل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم مكة عَنوة قبل أن يأتوه فَيستأمنوا إليه ، إنه لهلاك قُريش إلى آخر الدهر .

قال العباس : فركبتُ بغلةرسول الله صلّى الله عليه وسلّم البيضاء فخرجتُ عليها حتى جئتُ الأراك ، (٢) أقول: لعَلّى أرى بعض الحطّابة ، أو صاحب لَبن أوذا حاجة يأتيهم فيُخبرهم بمكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . قال : فوالله إنى لأسير عليها وألتمس ماخرجتُ له إذ سمعتُ كلام أبى سفيان ، وحكيم بن حزام و بديل بن رقاء ، يتجسسون الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعنا أبو سفيان يقول : مارأيت كالليلة نيراناً قطُّ ولاعسكرا ! قال : فعرفتُ صوت أبى سفيان . فقلت: أبا حنظلة ! فعرف صوتى فقال : أباالفضل ! قلت : نعم . قال: مالك ؟ فداك أبى وأُمى ! قلت: و يلك! هذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى الناس ، واصباحَ قُريش ! فقال : ما ترى؟ فقلت : تَركب عَجُز هذه البغلة فأستأمن لك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فوالله لئن ظفر بك ليضر بنّ

(١) من الظهران : واد قرب مكة .

(٢) الأراك : قرب مكة .

عُنقك . فرَدِفنى . فخرجتُ به أركض بغلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نحو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . فكلما مررتُ بنارٍ من نيران المُسلمين فنَظروا إلىّ قالوا : عَمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم على بغلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . حتى مررتُ بنار عُمر بن الخطّاب . فقال : أبو سفيان ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عَقد ولا عهد . ثم أُشتد نحو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وركضتُ البغلة حتى أُقتحمت على باب القُبة، وسبقتُ عُمر بما تَسبق به الدابة البطيئة الرجلَ البطىء. فدخل عُمر على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان أمكن الله عزّ وجلّ منه بغير عَقد ولا عَهد ، فدعنى أضرب عُنقه . فقلت : يا رسول الله ، إنى قد أَجرتُه . ثم جلست إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأخذت برأسه وقلتُ : والله لا يُناجيه اليومَ أحد دونى . فلما أكثر فيه عُمر قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله ما تَصنع هذا إلّا لأنه رجل من بنى عَبد مَناف ، ولو كان من بنى عدىّ بن كَعب ما قلتَ هذا ! فقال : مهلا يا عبّاس ، فوالله لإسلامك يومَ أسلمت كان أحبَّ إلىّ من إسلام الخطّاب لو أَسلم ، لأنى أعلم أَن إسلامك أحبُّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم من إسلام الخطّاب لو أسلم. فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : أُذهب فقد أمّناه حتى تَغدو به علىّ الغَداةَ. فرجعتُ به إلى منزلى . فلمّا أصبح غدا به على رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم . فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ! أما آن لك أن تَعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأُمى ، ما أَوْصلك وأحلمك وأكرمك ! والله لقد ظننتُ أنه لو كان مع الله عزّ وجلّ غيره لقد أَغنى عنّى شيئاً . فقال : ويحك يا أبا سفيان ! أما آن لك أن تعلم أنى رسولُ الله ؟ قال : بأبى أنت وأُمى ، ما أَوصلك وأَحلمك وأكرمك! أمّا هذه فإن فى النَّفس منها شيئاً . قال العبّاس : فقلتُ له : ويحك! تَشهد شهادة الحقّ قبل أن تُضرب عُنقك . قال : فتشهّد . فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم للعبّاس حين تشهّد أبو سفيان : أنصرف يا عبّاس

فأحبسه عند خَطْم الجبل بمَضيق الوادى ، حتى تَمُر عليه جُنود الله عزّ وجل . فقلت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان يُحب الفَخر فاجعل له شيئاً . فقال : نعم ، مَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المَسجد فهو آمن ، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن . فخرجتُ حتى أجلسته عند خَطم الجبل بمَضيق الوادى . فمرتْ عليه القبائل ، فجعل يقول : من هؤلاء يا عباس ؟ فأقول : سُليم . فيقول : مالى ولسُليم ! فتمر به قبيلة ، فيقول : مَن هؤلاء ؟ فأقول : أسلم . فيقول : مالى ولأسلم ! وتمُر جُهينة . فيقول : من هؤلاء ؟ فأقول : جهينة : فيقول : مالى ولجهينة ! حتى مَرّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى الخضراء ، كتيبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من المُهاجرين والأنصار ، فى الحديد لا يُرَى منهم إلا الحَدَق . فقال : مَن هؤلاء يا أبا الفضل ؟ فقلت : هذا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى المُهاجرين والأنصار . فقال : يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً . فقلت : ويحك ! إنها النبوّة . فقال : نعم . فقلت : الحق الآن بقومك فحذّرهم . فخرَج سريعاً حتى أتى مكةَ ، فصَرخ فى المَسجد : هذا مُحمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به . قالوا : فمَه ! قال : فمَن دخل دارى فهو آمن . فقالوا : ويحك ! ماتُغنى دارك عنا ! قال : ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

أبوسفيان يوم اليرموك

وتحدث عبدُ الله بن الزُّبير قال :

لما كان يوم اليَرموك خلّفنى أبى ، فأخذتُ فرساً له وخرجتُ ، فرأيتُ جماعةً من الطُّلقاء ، منهم أبو سفيان بن حَرب ، فكانت الرُّوم إذا هَزمت المُسلمين قال أبوسفيان بن حَرب : إيها بنى الأصفر ! فإذا كَشفهم المُسلمون قال أبوسفيان :

وبنو الأصفر الكرامُ ملوك الرُّ وم لم يَبق منهُم مذكُور

فلما فَتح الله على المُسلمين حدّثتُ أبى فقال : قاتله الله ! أبى إلّا نِفاقاً ، أو لسنا خيراً له من بنى الأصفر ! ثم كان يأخذ بيدى فيطوف بى على أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيقول : حدّثهم . فأحدثهم . فيعجبون من نِفاقه .

هو وعلى لما ولى أبو بكر

وقيل : لما تُوفى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم وولى الخلافةَ أبو بكر الصِّديق رضى الله عنه ، جاء أبو سفيان بن حَرب إلى علىّ بن طالب رضى الله عنه فقال : يا أبا الحسن ، ما بالُ هذا الأمر فى أضعف قُريش وأَقلِّها ! فوالله لئن شئت لأملأنّها عليهم خيلاً ورجالاً . فقال على رضى الله عنه : طالما عاديتَ الله ورسولَه والمُسلمين، فما ضَرّهم ذلك شيئاً ، إنّا وجدنا أبا بكر لهـا أهلاً .

شعر له لما ولى أبو بكر

وقال أبو سفيان ، لمـا ولى أبو بكر رضى الله عنه :

وأضحت قُريشٌ بعد عِزٍّ ومَنْعة ... خُضوعاً لتَيْم[1] لا بضَرب القواضبِ

فيا لَهْفَ نَفْسى للذى طَفِرتْ به ... وما زال منهـا فائزاً بالرَّغائب

والشعر الذى فيه الغناء ، وأُفتتح به أبو الفرج أخبار أبو سفيان، هو أبيات قالها فى سَلَام بن مِشكم اليهودىّ ، لما نزل عليه أبو سفيان فى غَزاة السَّويق، وهى :

سَقـانى فَرَوَّانى كُمَيْتاً مُـدامةً ... على ظَمإٍ منِّى سَلَامُ بن مِشْكِمِ

تخيّرتُه أهلَ المدينة واحِـــداً ... سواهم فلم أُغْبَن ولم أتنـــدَّم

فلما تَقضَّى الليـلُ قلتُ ولم أكُن ... لأُفْرِحَه أبشر بعُرف ومَغْـنم

وإنّ أبا غُنْم يجود وداره ... بيثرب مأوى كُل أَبيض[2] خِضْرِم

هو فى غزوة السويق

وذُكر أنه لمّا انقضت غزوةُ بدر نَذر أبو سفيان ألاّ يَمس رأسَه ماء من جنابة حتى يَغزو رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم . فخرج فى مائتى فارس من قُريش ليُبرّ يَمينه ،فسَلك النجديَّةَ حتى نَزل بصَدر قَناة إلى جَبل يُقال له تَيب،[3] من المَدينة على بريد أو نحوه .ثم خَرج من الليل حتى أتى بنى النّضير من اليهود ، تحت

(١) هو تيم بن مرة بن كعب . وإليه قبيلة أبى بكر .

(٢) الخضرم : الجواد الكثير العطية .

(٣) تيب ، بالتحريك والباء آخراً ، ويقال فيه: تيت ، بسكون الياء ، وتشديدها مع الفتح والكسر .

الليل ،فأتى حُيَىّ بن أخطب فضرب عليه بابَه ، فأبى أن يفتح له وخافه . فمضى إلى سَلَام بن مِشْكم ، وكان سيِّد بنى النَّضير فى زَمانه ذلك وصاحب كنزهم ، فاستأذن عليه . فأذن له . فقراه وسقاه الخمر ونظر له خَبَر الناس ، ثم خرج فى عقب ليلته حتى جاء أصحابه ، فبعث رجالاً من قُريش إلى المدينة . فأتوا ناحيةً منها يقال لها : العُرَيض ، فحرّقوا فى نَخل لها ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له فى حَرْث لها ، فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين . ونَذِر بهم الناسُ . فخرج رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى طلبهم حتى بلغ قَرْقرة الكُدْر[1] ،ثم انصرف راجعاً لم يَلْق كَيْداً ، وقد فاته أبو سفيان وأصحابُه ، وقد رأَوْا من مَزاود القوم ما قد طرحوه فى الحَرْث ، يتخفَّفون به للنَّجاة ، وفيها سَويق ، فلذلك سُمِّيت الغَزوة: غزوةَ السَّويق.

وذَكر أبو الفَرج أنها إنما سُميت بذلك لأن قُريشاً عَيَّرت أبا سفيان بكَونه خَرج فلم يَصنع شيئاً ، وقالوا : إنما خرجتم تَشربون السَّويق .

وقال المُسلمون ، حين رجع بهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أنطمع أن تكون غزوة ؟ قال : نعم .

(١) على ستة أميال من خيبر .

أخبار الوليد بن يزيد

نسبه و كنيته

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مَروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أُمية ابن عبد شمس بن عبد مناف . ويكنى : أبا العباس .

أمه

وأُمه أُم الحجّاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم بن أبى عَقيل الثَّقفى . وهى بنت أخى الحجّاج بن يوسف . وفيه يقول أبو نُخَيلة : [1]

بين أبى العاصِ و بين الحجّاجْ يا لَكُما نُورَا سِراجٍ وهّاجْ

عليه بعد عَمِّه عُقِد التاجْ

أم يزيد

وأُم يزيد بن عبد الملك بن مَروان عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية بن أبى سُفيان بن حَرب بن أُمية . وأُمها أُم كُلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كُريز بن ربيعة بن حَبيب بن عبد شمس . وأُم عبد الله بن عامر بن كُريز أُم حَكيم البَيضاء بنت عبد المُطلب بن هاشم ، عَمَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ولذلك يقول الوليدُ بن يزيد :

نَبِيُّ الهُدى خالِي ومن يكُ خالُه نَبِيَّ الهُدى يَقْهَرْ به من يُفاخِرُ

شىء عن الوليد و ولايته الخلافة

وكان الوليدُ بن يزيد من فِتْيان بنى أُمية وظُرفائهم وشُعرائهم وأجوادهم وأشدَّائهم ، وكان مع ذلك خليعاً مُنهمكاً فى الشرب واللَّهو وسَماع الغِناء ، وولى الخلافةَ بعد عَمِّه هِشام بن عبد الملك بن مَروان بعهدٍ من أبيه يزيدَ بن عبد الملك .

ولايته العهد بعد هشام وطمع هشام فى خلعه

ذُكر أنه لما خَرج بالعراق يزيدُ بن المُهلَّب بن أَبى صُفرة الأَزدى على يزيدَ

(١) ستأتى ترجمته .

ابن عبد الملك بن مروان ، ووجّه يزيدُ بن عبد الملك الجيُوشَ لقتاله ، وعقد لأخيه مَسْلمة بن عبد الملك على الجيش ، و بعث ابنَ أخيه العباسَ بن الوليد بن عبد الملك وعقد له على أهل دمشق، قال له العبّاس : يا أمير المُؤْمنين ، إنّ أهل العراق أهل غَدْر و إرجاف ، وقد وجهتَنا مُحاربين والأحداثُ تحدُث ، ولا آمَن أن يُرْجِفَ أهلُ العراق و يقولوا : مات أميرُ المُؤْمنين ولم يَعهد ، فيفُتُّ ذلك فى أعضاد أهل الشأم . فلو عَهِدْتَ عهداً إلى عبد العزيز بن الوليد ؟ فقال : غدا . و بلغ ذلك مَسلمةَ بن عبد الملك ، فأتى يزيدَ فقال : يا أمير المؤمنين ، أيما أحبُّ إليك : ولدُ عبد الملك أو ولد الوليد ؟ فقال : بل ولدُ عبد الملك . فقال له : فأخوك أحقُّ بالخلافة أم ابن أخيك ؟ قال : إذا لم تكن فى ولدى فأخى أحقُّ من ابن أخى . قال : فابنك لم يبلُغ ، فبايِعْ لهشام ثم لابنك بعد هشام. والوليدُ بن يزيد يومئذٍ ابن إحدى عشرة سنة . قال: غدا أُبايع . فلما أصبح فعل ذلك و بايع لأخيه هشام بن عبد الملك بولاية العهد و بعده لابنه الوليد . وأخذ على هشام ألاّ يَخلع الوليدَ بعده ،ولا يُغيِّر عهده ، ولا يَحتال عليه . فلما بلغ الوليدُ بن يزيد نَدِم أبوه على تَقْديم هشام عليه ، فكان يقول: الله بينى و بين مَن جعل هشاماً بينى و بينك. ثم تُوفى يزيد بن عبد الملك سنة خمس ومائة ، وعُمْر الوليد ابنه خمسَ عشرة سنة . وولى الخلافةَ هشامُ بن عبد الملك بن مروان ، والوليد ولىّ عهده ، فلم يزل الوليدُ مُكرَّماً عند عمِّه هشام رفيعَ المَنزلة مدة ، ثم طَمع هشام فى خَلع الوليد وعَقد العهد بعده لابنه مَسلمة بن هشام ، فجعل يذكر الوليدَ بن يزيد وتَهتُّكه و إدمانه على الشَّراب ، و يُظهر ذلك فى مَجلسه ، ويقوم به ويقعد . وولّاه الحجَّ ليُظهر ذلك منه بالحرَمَيْن فيسقطَ . فحجّ فظهر منه فِعْلٌ كثير مَذْموم،وتَشاغل بالمُغنِّين والشَّراب ، وأمر مولًى له فحجّ بالناس . فلما رَجع طالبه هشامٌ بأن يَخلع نفسَه ، فأبى ذلك ، فحرمه العَطاء وحَرم سائر مواليه وأسبابَه وجفاه جَفاءً شديداً . فخرج مُتبدِّياً . (١)

(١) خرج متبدياً ،أى إلى البادية .

وخَرج معه عبدُ الصمد بن عبد الأعلى مُؤدِّبه ، وكان يُرمَى بالزَّندقة . ودعا هشامٌ الناسَ إلى خَلع الوليد والبيعة لابنه مَسلمة .

—وأُمُّه أُم حكيم بنت يَحيى بن الحَكم بن أبى العاصى . وكان يُكنى : أبا شاكر . كُنِّى بذلك لمَولًى كان لمَروان يكنى : أبا شاكر . وكان ذا رأى وفَضل ، وكانوا يُعظِّمونه ويتبرّكون به —

فأجابه إلى خَلع الوليد والبيعة لمَسلمة بن هشام : محمدٌ ، وإبراهيم — أبنا هشام بن إسماعيل المَخزومىّ — وعبد العزيز ، وخالد ، والوليد ، بنو القَعقاع بن خُويلد العَبْسى ، وغيرهم من خاصّة هِشام . وكتب هشام إلى الوليد : ما تَدع شيئاً من المُنكر إلّا ارتكبْته ، فليتَ شِعرى ما دِينُك ؟ فما أدرى أعلى الإسلام أنت أم لا ؟ فكتب إليه الوليدُ بن يزيد :

يا أيها السائلُ عن دِيننا ... نحن على دين أبى شاكرِ
نَشربُها صِرْفاً وممزوجةً ... بالسُّخْن أحياناً وبالفاتر

فغَضِب هشامٌ على ابنه مَسْلمةَ وقال : يُعيِّرنى بك الوليدُ وأنا أُرشِّحك للخلافة ! فالزم الأدب واحضُر الصلوات . وولّاه الموسمَ سنةَ سبعَ عشرةَ ومائة . فأظهر النُّسك وقَسم بمكة والمدينة أموالاً . فقال رجلٌ من أهل المدينة :

يا أيها السائلُ عن دِيننا ... نحنُ على دين أبى شاكرِ
الواهبِ البُزْلَ (١) بأرْسانها ... ليس بزنديقٍ ولا كافر

يُعرِّض بالوليد .

إباء خالد القسرى بيعة مسلمة

وبلغ خالدَ بن عبد الله القَسرىّ ما عزم عليه هشامٌ ، فأباه وقال : أنا برىء من خليفة يكنى : أبا شاكر . فبلغت هشاماً عنه . فكان ذلك سبب إيقاعه به .

الوليد والعباس فى مجلس هشام

وذُكر أن الوليد بن يزيد دَخل يوماً على مجلس هشام ، وقد كان فى ذِكره قَبل أن يدخل . فحمقه مَن حَضر من بنى أُميــة . فلما جَلس قال له العبّاس بن

(١) البزل من الإبل : التى استكملت الثالثة وطعنت فى التاسعة ٤ الواحد : بازل . والأرسان : الحبال تقاد بها الإبل ؛ الواحد : رسن .

الوليد بن عبد الملك ، وعُمر بن الوليد : كيف حُبُّك يا وليد للرُّوميّات ، فإن أباك كان يُحبّهن وكان بهنّ مشغوفاً ؟ قال : إنى لأُحبهنّ ، وكيف لا أُحبهنّ ولن تزال الواحدة منهنّ قد جاءت بالهجين مِثْلك . وكانت أُم العبّاس روميّة . فقال : أُسكتْ !فلست [1] الفحلَ يأتى عَسْبُه [2] بمثلى . فقال له الوليد : أُسكت، يابن البَظْراء ! فقال : أَتفْخر علىّ بما قُطع من بَظْر أُمك . وأَقبل هشام على الوليد فقال له : ما شرابك ؟ قال : شرابُك يا أمير المؤمنين ، وقام مُغْضَباً فخرج . فقال هِشام : أهذا الذى تَزْعُمون أنه أَحمق ! ما هو أحمق ، ولكنى ما أظُنه على المِلّة.

هوسعيد بن هشام وإبراهيم المخزومى فى مجلس هشام

وذُكر أنّه دَخل الوليدُ بن يزيد يوماً مجلسَ هِشام بن عبد الملك ، وفيه سعيدُ ابن هِشام بن عبد الملك ، وإبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى ، وأبو الزُّبير ، مَولى مروان ، وليس هشام حاضراً . فجلس الوليدُ مجلسَ هشام . ثم أقبل على سَعيد ابن هشام ، فقال له : من أنت ؟ وهو به عارف . قال : سعيد ، أبن أمير المؤمنين . قال : مرحباً بك . ثم أَقبل على أبى الزُّبير فقال : مَن أنت ؟ فقال : أبو الزُّبير مولاك أيها الأمير . فقال : مرحباً بك . ثم أقبل على إبراهيم بن هشام فقال : من أنت ؟ قال : إبراهيم بن هشام بن إسماعيل . فقال : مَن إسماعيل ؟ فقال : إسماعيل ابن هشام بن الوليد بن المُغيرة . فقال : مَن الوليدُ بن المُغيرة ؟ قال : الذى لم يكن جَدُّك يُرَى أَنه فى شىء حتى زَوَّجه أبى ، وهو بعضُ ولدِ ابنته . فقال : يابن اللَّخناء ! أتقول هذا ! وائتخذا [3] . وأقبل هشامٌ ، فقيل لهما : قد جاء أمير المؤمنين . فجلسا وكفّا . فما كاد الوليدُ يتنحّى عن صَدر مجلسه ، إلا أنه زَحَل له قليلاً . فجلس هشامٌ فقال : كيف أنت يا وليد ؟ فقال : صالحٌ .قال : ما فعلتْ

(١) فى الأغانى : « فليس » .
(٢) العسب : ماء الفحل .
(٣) ائتخذا : تصارعا .

برَابِطُك [١] . قال مُعْمَلةٌ . قال : فما فَعل نُدماؤك ؟ قال : صالحون ، ولَعنهم الله إنْ كانوا شَرًّا ممّن يحضُرك . فقال هشام : يا بن اللَّخناء ! جَؤُوا عُنقه . فلم يفعلوا ودَفعوه رُويداً . فقال الوليدُ :

أنا ابْنُ أبى العاصِي وعثمانُ والدِى ... ومروانُ جَدِّى ذو الفَعَال وعامرُ
أنا ابنُ عَظيم القَرْيتين وعزُّهـا ... ثَقيفٌ وفِهْرٌ والعُصاةُ الأكابر
نبيُّ الهُدَى خالِى ومن يَكُ خالُه ... نبيَّ الهُدى يَفْخر به [٢] ويُكاثر

شعره لهشام لما أراد خلعه

وقيل : لمّـا أراد هشام بن عبد الملك أن يَخلع الوليدَ بن يزيد مِن ولاية عَهده ، قال الوليد يُؤنبـه ويَذكر إحسان والده إليه ويحذِّره سُوء عاقبة فِعْله :

كفرتَ يداً من مُنْعِمٍ لو شكرتَها ... جَزاك بها الرحمنُ ذو الفَضل والمَنِّ
رأيتُك تَبْنى جاهداً فى قَطيعتى ... ولو كنتَ ذاحزم [٣] لهدَّمتَ ما تَبْنى
أراك على الباقين تَجنى ضَغِينةً ... فيا وَيْحهم إن مُتَّ من شَرِّ ما تَجْنى
كأنِّى بهـم يوماً وأكثرُ [٤] قِيلهم ... أيا ليت أنّا حين يا ليت لا تُغْنى

ذم هشاماً بشعر لعبثه بخاصته

وذُكر أن هشام بن عبد الملك عَبث [٥] بالوليد بن يزيد وخاصّته ، فخرج الوليدُ فى نَفرٍ من أصحابه فَنزل بالأبرق ، وخَلَّف فى الرُّصافه كاتبَه عِياضَ بن مُسْلم ، مولى عبد الملك ، ليُكاتبه بما يحدُث . فقال الوليدُ لمؤدِّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى ، وقد شَربوا يوماً : قُل أبياتاً نُغنّى فيهـا . فقال أبياتاً وأمر عُمر الوادى فغنّى فيها ، وهى :

ألم تَرَ للنَّجم إذ [٦] سَبَّعا ... يُبادر فى [٧] بُرْجه المَرْجِعَا

(١) البرابط : جمع بربط ، وهو العود .
(٢) فى الأغانى : « يقهر به ويفاخر » .
(٣) فى الأصل : « أرب » مكان « حزم » .
(٤) فى الأغانى : « قولهم » مكان « قبلهم » . (٥) فى الأغانى : « عتب على الوليد »
(٦) سبع : أقام سبعا .
(٧) فى الأصل : « عن » . مكان « فى »

تحيَّر عن قَصْد مَجْراتِه إلى الغَوْر والْتمس المَطْلَعا
فقلتُ وأَعْجبنى شأنُه وقد لاح إذ لاح لى مُطْمِعا
لعلّ الوليدَ دنا مُلكُه فأَمسَى إليه قد اُسْتَجمعا
عَقَدْنا له مُحْكمات الأُمو رِ طَوْعاً وكان لها مَوْضِعا

فرُوى هذا الشعرُ ، و بلغ هشاماً ، فقطع عن الوليد ما كان يُجرى عليه وعلى أصحابه وحَرمهم . وكتب إليه : بَلغنى أنك قد اتخذتَ عبد الصمد خِدْناً ومُحدِّثاً ونديماً ، وقد حقَّق ذلك ما بلغنى عنك ، ولن أُبرّئك من سُوء ، فأَخرج عبد الصمد مَذْمومًا مَدْحوراً . فأَخرجه الوليدُ وقال :

لقد قذفوا أبا وَهْبٍ بأَمرٍ كبيرٍ بل يزيدُ على الكَبيرِ
فأَشْهد أنهم كَذَبوا عليه شهادةَ عالمٍ بهمُ خَبيرِ

وكتب الوليدُ إلى هشام بأنه قد أَخرج عبد الصمد ، واُعتذر إليه من مُنادمته ، وسأله أن يأذن لاُبن سُهيل فى الخُروج إليه . وكان من خاصّة الوليد . فضَرب به هشام ونَفاه وسيَّره . وكان اُبن سُهيل من أهل الشَّرف والنُّبل ، وَلى دِمشق مراراً ، وولى غيرَها . وأخذ عياضَ بن مُسلم ، كاتب الوليد فضَرب به ضرباً مُبرِّحًا ، وأَلْبسه المَسُوح وقيّده وحَبسه . فغمّ ذلك الوليدَ وقال : مَن يَثق بالناس ! ومَن يَصطنع المَعروف ! وهذا الأحولُ المشئوم قدَّمه أبى على وَلده وأهل بيته وأولاده ، وهو يَصنع ما ترَوْن ، ولا يَعلم أنّ لى فى أحدٍ هوًى إلا ضَربه وأَضرّ به . كتب إلىّ بأن أُخرج عبدَ الصمد ، فأَخرجتُه . وكتبتُ إليه فى أن يأذن لاُبن سُهيل فى الخُروج إلىّ ، فضَربه وطَرده ، وقد عَلِم رأيى فيه . وعَرف مكان عياض منّى واُنقطاعه إلىّ فضَربه وحَبسه ، يُضارُّنى بذلك . اللهم أَجِرْنى منه . ثم قال الوليدُ :

أنا النَّذيرُ لمُسْدِى نِعمـــةٍ أبداً ... إلى المَقاريفِ[1] لمّا يَخْبُرِ الدَّخَلا
أتشمخون ومنّا رأسُ نِعمتكم ... ستعلمون إذا أبصرتُم الدُّوَلا
إنْ أنت أكرمتَهم ألفيتَهم بطِرُوا ... وإنْ أهنتَهمُ ألفيتَهُم ذُلُلا
أنظُر فإن أنت لم تقدر على مَثَـل ... لهم سِوَى الكَلْب فاضربْهم مَثَلا
بينا يُسمِّنه للصَّيْد صـــاحبُه ... حتى إذا ما اُستوى من بعد ما هُزِلا
عدا عليه فلم تضرُرْه عَـــدْوتُه ... ولو أطاق له أكلاً لقـد أكلا

شعره فى الفخر على هشام

وقال الوليدُ أيضاً يفتخر على هشام :

أنا الوليـد أبو العبّاس قد علمت ... عُلْيا مَعَدٍّ مَدَى كَرِّى وإقْدامِى
إنِّى لفى الذِّرْوة العُلْيا إذا انْتَسبوا ... مُقَابَلٌ[2] بين أخوالِى وأعمامِى
بَنى لىَ المجدَ بانٍ لم يكُن وَكِلاً ... على مَنارٍ مُضِيئاتٍ وأعـلام
حللتُ من جَوهر الأعْياص قد عَلِمُوا ... فى باذخٍ مُشمخرِّ العِزِّ قَمْقام[3]
صَعْبِ المَرام يُسامِى النَّجمَ مَطلعُه ... يَسْمو إلى فَرْعِ طَوْدٍ شامخٍ سامِى

وقيل : إن الوليد بَعث براويته إلى هشام فأنشده هذه الأبيات. فقال : هشام: والله ما علمتْ له مَعَـدٌّ كَرًّا ولا إقـداماً ، إلا أنه شَرب مرةً مع عمِّه بكّار بن عبد الملك فعَرْبد عليه وعلى جواريه ، فإن كان يَعْنى ذاك بكَرِّه و إقدامه فعسى .

هو وأبو الزناد فى حديث هشام بعد موته

وحكى أبو الزِّناد قال :

دخلتُ على هشام بن عبد الملك، وعنده الزُّهرىّ ،وهما يَعيبان الوليدَ ، فأعرضتُ عنهما ، ولم أدخُل فى شىء من ذِكْره . فلم ألبث أن اُستُؤذن للوليد ، فأُذن له . فدَخل وهو مُغضب ، فجلس قليلاً ثم نهض . فلما مات هشامٌ ووَلى الوليدُ كَتب إلى المدينة فحُملت ، فدخلت إليه ، فقال لى : أتذكر قولَ الأحول والزُّهرى ؟

(١) المقاريف : الأنذال . (٢) المقابل : الكريم النسب من قبل أبويه .
(٣) الأعياص : العـاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، أولاد أولاد أميـة بن عبد شمس الأكبر . والقمقام : العدد الكثير .

فقلت : نَعم . وما عَرضتُ فى شىء من أمرك . فقال : صدقتَ ، أتدرى مَن أبلغنى ذاك ؟ قلت : لا . قال الخادمُ الواقفُ على رأسه ، وأيم الله ، لو بَقِى الفاسقُ الزُّهرى لقتلتُه — قيل : وكان الزُّهرى أجمع على أن يدخُل إلى بلاد الرُّوم إن وَلِى الوليد بن يزيد . فمات الزُّهرى قبل ذلك — ثم قال الوليد : ذَهب هشام بعُمرى . فقلت : بل يُبقيك الله يا أمير المُؤمنين . وقام فصلّى العَصر ثم جَلس يتحدّث إلى المَغرب ، ثم صلّى ودعا بالعَشاء ، فتعشيتُ معه ثم جَلس يتحدّث حتى صلّى العَتَمه ، ثم قال : أُسقينى . فأتينه بإناء مُغطًّى ، وجاء جوارٍ فقُمْن بينى و بينه ، فشَرب وأنصرفْن ، ومكث قليلاً ثم قال : أُسقينى . ففعلن مثل ذلك . وما زال والله ذلك دأبَه حتى طَلع الفجر ، فأحصيتُ له سبعين قَدحاً .

شعره فى الرد على من عابه بشرب الخمر

وقيل : بلغ الوليدَ أن ابن عمّه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك ، وغيرَه من بنى مَروان ، يَعيبونه بالشَّراب ، فلَعنهم وقال : إنهم ليَعيبون علىّ أمراً لو كانت لهم اللذّة فيه لما تَركوه ، وقال هذه الأبيات ، وهى من جيد شعره :

ولقد قَضيتُ و إن تَجلّل لِمّتى ... شَيبٌ على رَغْم العِدَى لَذّاتى
من كاعباتٍ كالدُّمَى ومَناصِفٍ ... ومَراكب للصَّيد والنَّشَوات
فى فِتيةٍ يأبَى الهوانَ وجُوهُهم ... شُمّ الأُنوف جَحاجح سادات
إنْ يطلبوا بتِراتهم يُعْطَوْا بها ... أو يُطْلبوا لا يُدْركوا بترات

كتابه إلى هشام وكتاب هشام إليه

وذُكر أن الوليد بن يزيد كتب إلى عمّه هِشام : بلغنى الذى أحدث أميرُ المؤمنين من قَطع ما قَطع عنّى ، ومَحو مَن مَحا من صحابتى ، وأنه حَرمنى وأهلى ، ولم أكُن أخاف أن يبتلى اللهُ عزّ وجلّ أمير المُؤمنين بذلك فىّ ، ولا ينالنى مثلُه منه ، ولم يبلغ أُستصحابى لابن سُهيل ومسألتى فى أمره أن يَجْرى عليه[1] ماجَرى ، فإن كان ابن سُهيل على ما ذكر أمير المؤمنين فبَحْسب العَيْر أن يقرُب من الذئب ،

(١) فى الأغانى : « على » .

وعلى ذلك فقد عقد اللهُ جلّ وعزّ لى من العهد ، وكتب لى من العُمر ، وسبَّب لى من الرزق ، ما لا يقدر أحدٌ دونه — تبارك وتعالى — على قَطْعه عنّى دون مُدّته، ولا صَرْفه عن مواضعه المحتومة له . فقدرُ الله يَجرى على ما قدَّره فيما أَحب الناسُ وكرهوا ، لا تَعجيلَ لآجله ولا تأخير لعاجله ، والناسُ بعد ذلك يكتسبون[1] الأوزار ويَقترفون الآثام على أنفسهم بما يَستوجبون من الله عزّ وجلّ العُقوبة عليه . وأمير المؤمنين أحقُّ بالنظر فى ذلك والحفظِ له . والله يُوفِّق أمير المؤمنين لطاعته ، ويُحسن القَضاء له فى الأُمور بقُدرته . وكتب فى آخر كتابه :

أَليس عظيماً أن أرى كُلَّ وارِدٍ ... حِياضَك يوماً صادراً بالنَّوافِلِ
وأَرجعَ مَحْدود الرجاء مُصَرَّداً ... بتَحلئةٍ عن وِرد تلك المَناهل
فأصبحتُ مما كنت آمُل منكُم ... وليس بلاقٍ مارجا كُلُّ آمل
كمُقتَبِض يوماً على عُرْض[2] هَبْوةٍ ... يَشُدّ عليها كفَّه بالأَنامل

فكتب إليه هشام بن عبد الملك : قد فهم أميرُ المؤمنين ما كتبتَ به من قَطْع ما قَطع عنك وغير ذلك . وأمير المؤمنين يَستغفر الله من إجرائه ما كان يُجرى عليك ، ولا يتَخوّف على نفسه اُقتراف المآثم فى الذى أَحدث من قَطْع ما قَطع ، ومَحْو من مَحا من صَحابتك ، لأمرين : أمّا أحدهما فإن أمير المؤمنين يَعلم مواضعك التى كنت تَصرف إليها ما يُجريه عليك . أما الآخر فإثبات صحابتك وأرزاقهم دارِئة عليهم لا يَنالهم ما يَنال المُسلمين عند قَطع البُعوث عليهم ، وهم مَعك تَجول بهم فى سَفهك . وأمير المُؤمنين يرجو أن يكفِّر الله عزّ وجلّ عنه ما سَلف من إعطائه إياك باُستئنافه قَطْعَه عنك . وأما اُبنُ سُهيل ، فَلَعمرى لئن كان نَزل منك بحيث يسوءك ما جَرى عليه لما جعله الله تعالى لذلك أهلا . وهل زاد ابن سُهيل —

(١) فى الأغانى : « يحتسبون » .
(٢) الهبوة : الغبرة .

لله أبوك — على أن كان [1] زفَّاناً مُغنياً قد بلغ من السَّفه غايتَه ، وليس مع ذلك ابن سُهيل بشَرٍّ ممن كنتَ تَصحبه مع الأمور التى يُنزِّه أميرُ المُؤمنين نفسَه عنها ، مما كنتَ لعمرى أهلاً للتَّوبيخ فيه . وأما ما ذكرتَ مما سبَّبه الله عزّ وجلّ لك ، فإن الله تبارك وتعالى قد ابتدأ أمير المُؤمنين بذلك واصطفاه له ، والله بالغ أمره . ولقد أصبح أميرُ المُؤمنين ، وهو على اليقين من رأيه ، إلا أنه لا يَملك لنفسه ، مع ما أعطاه الله من كرامته ، ضُرًّا ولا نَفعا . وإن الله جلّ وعزّ وَلِىّ ذلك منه ، وإنه لا بُدّ له من مُفارقته . وإن الله أرأف بالعِباد وأرحم من أن يُولِّى أمرَهم مَن لا يَرتضيه لهم منهم . وإن أمير المؤمنين مع حُسن ظَنه بربِّه لعلى أفضل الرَّجاء لأن يولِّيه بسبب ذلك لمن هو أهله فى الرِّضَى به لهم . فإن بلاء الله عند أمير المؤمنين لأعظمُ من أن يَبلغَه ذِكرُه ، أو يُوازَيه شُكره ، إلّا بعَون منه . ولئن كان قَدَّر الله لأمير المؤمنين تعجيل وفاةٍ ، فإن فى الذى هو مُفْضٍ وصائرٌ إليه من كَرامة الله جَلّ وعَز خَلفاً من الدُّنيا . ولَعمرى إنّ كتابك إلى أمير المؤمنين بما كتبتَ به لغيرُ مُسْتنكر من سَفَهك وحُمْقك ، فأَبْقِ على نفسك ، وقصِّر من غُلوائها ، وأرْبعْ على ظَلعك ، فإن لله جَلّ وعز سطواتٍ وغِيَراً يُصيب بها من يشاء من عباده . وأمير المؤمنين يسأل الله العِصْمة والتَّوفيق لأحبِّ الأُمور إليه وأرضاها له . وكَتب فى أسفل الكتاب .

إذا أنت سامحتَ الهَوى قادك الهَوى إلى كُل ما فيه عليك مَقالُ

والسلام .

تبشيره بالخلافة بعد هشام

وحَكى أبو الزُّبير المُنذرُ بن عمرو ، وكان كاتباً للوليد بن يزيد ، قال : أرسل إلىّ الوليدُ صَبيحةَ اليوم الذى أتتْه فيه الخلافةُ ، فأتيتُه . فقال : يا أبا الزُّبير ، ما أَتَتْ علىَّ ليلةٌ أطولُ من هذه الليلة ، عرضتْ لِى أُمور وحدّثتُ فيها

(١) الزفان : الراقص .

نفسى بأمور ، وهذا الرجلُ — يعنى هشام بن عبد الملك — قد أُولع بى ، فاُركبْ بنا نتنفَّس . فركب وسِرتُ معه ميلين ، ووَقف على تَلٍّ وجعل يشكو هشاماً ، إذ نَظر إلى رَهْج قد أَقبل ، وسَمع قَعْقعة البَريد ، فتعوَّذ بالله من شَرِّ هشام وقال : إن هذا البريد قد أَقبل بموتٍ وَحِيٍّ [1] أو بُملك عاجلٍ . فقلت : لا يسوءك اللهُ أيها الأمير بل يسرُّك ويُبقيك أبداً . إذ بدا رجلان على البريد يُقبلان ، أحدهما مولًى لآل أبى سُفيان بن حَرب . فلما قَرُبا رأيا الوليدَ فَنزلا يعدُوان حتى دنَوا ، فسلَّما عليه بالخلافة . فوَجم . وجعلا يكرِّران التَّسليم عليه بالخلافة . فقال . ويحكما ! أمات هشام ؟ قالا : نعم . قال : فمرحباً بكما ، ما معكما ؟ قال : كتاب مولاك سالم ابن عبد الرحمن . فقرأ الكتاب . وأنصرفنا . وسأل عن عياض بن مُسلم كاتبه ، الذى كان هشام ضَربه وحَبسه . فقالا : يا أمير المؤمنين ، لم يَزل محبوساً حتى نَزل بهشام أمرُ الله . فلما صار إلى حالٍ لا تُرجَى الحياة لمثله معها أرسل عياضٌ إلى الخُزَّان : احتفظوا بما فى أيديكم ولا يصلنَّ أحد إلى شىء . وأفاق هشام إفاقةً ، فطلَب شيئاً فمُنِعه . فقال: أُرانا كُنَّا خُزَّانا للوليد! وقضى من ساعته . فخرج عِياضٌ من السجن ساعةَ قَضى هشام ، فخَتم الأبواب والخزائنَ ، وأمر بهشام فأُنزل عن فِراشه ، ومَنعهم أن يُكفِّنوه من الخزائن . فكفَّنه غالب مولى هشام . ولم يجدوا قُمْقُماً [2] حتى اُستعاروه .

لاتعقيب لابن وصل

قلتُ : ذُكر أن هشام بن عبد الملك كانت تُحمل ثيابه على أربعمائة ظهر ، وأفضى الحال عند موته إلى أن لم يُوجد له كفن حتى كفَّنَه غالب ، هذا . فسبحان من لا يَزول مُلكه .

وكانت وفاته سنة خمس وعشرين ومائة . وكانت مُدة خلافته نحواً من عشرين سنة .

---

(١) الوحى : السريع .

(٢) القمقم : إناء من نحاس يسخن فيه الماء .

الوليد وابنا هشام المخزومى

قال أبو الفرج :

وأمر الوليد بأخذ أبنى هشام بن إسماعيل المخزومى ، فأُخذا بعد أن عاذ إبراهيم ابن هشام بقبر يزيد بن عبد الملك . فقال الوليد : ما أُراه إلا قد نجا . فقال له يحيى ابن عُروة بن الزُّبير ، وأخوه عبد الله بن عُروة : إن الله لم يَجعل قبرَ أبيك معاذاً للظالمين ، فخُذْه برَدّ ما فى يده من مال اللهِ تعالى . فقال : صدقتَ . فأَخذهما ، فبعث بهما إلى يُوسف بن عمر والى العراقَيْن وكتب إليه بأن يَبْسُط عليهما العذابَ حتى يَتْلفا . ففعل ذلك بهما ، وماتا جميعاً فى العذاب ، بعد أن أقيم إبراهيم بن هشام للناس حتى اقتضَوْا منه المظالم .

شعر الوليد حين نعى إليه هشام

وذُكر أنه لما نُعى هشام إلى الوليد ، قال : والله لأتلقَيَنَّ هذه النِّعمةَ بسَكْرة قبل الظهر ، ثم قال :

طاب يَومى ولَذَّ شُربُ السُّلافَه ... إذ أتانا نَعِىُّ مَن بالرُّصافه

وأتانا البريدُ ينعَى هِشاماً ... وأتانا بخاتمٍ للخِلافه

فاُصطبحنا من خمر عانةَ[1] صِرْفاً ... ولَهَوْنا بقَيْنةٍ عَزَّافه

ثم حَلف ألاّ يَبرح موضعَه حتى يُغنَّى فى هذا الشعر . فغُنِّى له فيه وشَرب حتى سكر ، ثم دَخل فبُويع له .

قيل : وسَمع صياحاً فسأل عنه ، فقيل : هذا من دار هشام تبكيه بناتُه . فقال :

إنّى سمعتُ بليلٍ ... وَرَا المُصَلَّى برَنَّهْ

إذا بناتُ هشامٍ ... يندُبْن والدَهُنَّه

يندُبْن قَرْماً جَليلا ... قد كان يَعْضُدهُنَّه

أنا المخنَّثُ حقّاً ... إن لم[2] . . . .

(١) عانة : بلد على الفرات مشهورة بالخمر .

(٢) مكان هذا النقط كلمة صريحة .

وقال الوليد أيضاً :

ليت هشاماً عاش حتى يَرَى ... مِكيالَه الأَوفرَ قد أُتْرِعَا
كِلْنا له الصّاعَ التى كالَها ... وما ظَلَمناه بها أَصْوُعا
لم نَأتِ ما جئناه [1] من بِدْعة ... أحلّه القُرآنُ لى أَجمعا

من شعره المطرب

ومن شِعر الوليد بن يزيد، وكان أبو غسّان يكاد يرقُص إذا أَنشده :

أُصدع نَجىَّ الهمُوم بالطرب ... وأُنعم على الدّهر بأُبنة العِنَبِ
وأُستقبل العَيش فى غَضارته ... لا تَقْفُ منه آثارَ مُعْتقِبِ
من قهوةٍ زانها تقادُمها ... فهى عَجوزٌ تَعْلو على الحِقَبِ
أشهَى إلى الشَّرْب يوم جلوْتها ... من الفتاة الكَريمة النَّسب
فقد تجلَّت وراق جَوهرُها ... حتى تبدَّت فى جَوهر [2] عَجب
فهى بغير المِزاج من شَرَر ... وهى لدى المَزْج سائل الذَّهب
كأنها فى زُجاجها قَبَسٌ ... تذكو ضياءً لعَين مُرْتقب
فى فتيةٍ من بنى أُميةَ أه ... لِ المَجد والمَأثُرات والحَسب

وله أيضا عندما نعى هشام إليه

وقال الوليد أيضا لما أتاه نعىُ هشام :

طال ليلى وبِتُّ أُسقَى المُداما ... إذ أَتانى البريدُ يَنْعَى هِشاما
وأتانى بحُلّة وقَضيب ... وأَتانى بخاتَم ثم قاما
فجعلتُ الولىّ من بعد فقدى ... أفضل [3] الناس ناشئاً وغُلاما
ذلك أُبنى وذاك قَرْم قُريش ... خيرُ قَرم وخيرُهم أعماما

غناه عمر الوادى بشعره فى موت هشام

وحكى عُمر الوادى قال :

---

(١) فى الأغانى : « ماتأتيه » .
(٢) فى الأغانى : « فى منظر » .
(٣) فى الأغانى : « يفضل » .

كنت يوماً عند الوليد إذ ذكر هشاماً ، فقال لى : غَنِّى بهذه الأبيات . فقلت : ما هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

هَلَك الأحولُ المَشُو ... مُ فقد أُرسل المَظرْ
ثُمَّت اُستُخلف الولي ... دُ فقد أُورق الشَّجر

ما أخذه أبونواس من معانيه

قال أبو الفرج :

وللوليد فى ذِكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة ، قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم، وسلخوا معانيها ، وخاصّة أبو نُواس فإنه سَلخ معانيه كُلها فجعلها فى شعره، وكرّرها فى عدة مواضع . ومن جيِّد شعره قولُه :

إذا لم يكن خيرٌ مع الشر لم تجدْ ... نصيحاً ولا ذا حاجة حين تفزعُ
وكانوا إذا همُّوا بإحدى هَناتهم ... حسرتُ لهم رأسى ولا أتقنع

من شعره فى هشام

ومن نادر شعره قوله يخاطب هشاما :

فإن تكُ قد مَلِتَ القُرب منِّى ... فسوف ترى مُجانبتى و بُعدى
وسوف تلوم نفسَك إن بقينا ... وتبلو الناس والإخوان[1] بعدى
فتَندمُ فى الذى فرّطت فيه ... إذا قايستَ فى ذَمى وحمدى

شعره لما بويع

وحكى الهيثم بن عمران قال : لما بويع الوليد بن يزيد سمعتهُ يقول على المنبر:

ضمِنتُ لكم إن لم تَعُقنى[2] منيّتى ... بأن سماء الضُّر عنكم ستُقلعُ

وقيل : إنه كتب بذلك إلى أهل المدينة ، وهذا من أبيات أولها :

ألا أيها الركب المُخبّون أبلغوا ... سلامِى سُكانَ البلادفأسمِعوا

ومنها :

وقُولوا أتاكم أشبهُ الناس سنةً ... بوالده فاُستبشِروا وتوقّعوا
سيُوشك إلحاقٌ بكم وزيادة ... وأعطيةٌ تأتى تباعاً فتُشفع

وقيل: لما ولى الوليد الخلافة بعث إلى جماعة من أهله، فلما حضروا قال: أتدرون

(١) فى الأغانى : « الأحوال »
(٢) فى الأغانى : « لم ترعنى » .

لم دعوتكم ؟ قالوا : لا . قال : ليقل قائلكم . فقال رجل منهم : أردت يا أمير المؤمنين أن ترينا ما جدد الله عز وجل لك من نعمه وإحسانه . فقال: نعم، ولكنى :

أُشهد اللهَ والملائكةَ الأبْـ ـرار والعابدين أهل الصَّلاح
أننى أشتهى السَّماع وشُرْب الـ ـكأس والعضّ للخُدود المِلاح
والنَّديمَ الكريمَ والخادمَ الفا ـرهَ يَسعى إلىّ بالأقداح

قُوموا إذا شئتم .

من شعره

قلت : ومن شِعره :

أشربُ الرَّاح وأهوى كُلَّ مضفور الذُّؤابَهْ
أنا للناس إمامٌ غير أنى ذو صَبابَهْ

غنت جارية فاشتراها

وذُكر أنه عُرضت على الوليد بن يزيد جاريةٌ صفراء كوفيّة مولَّدة ، يقال لها: سعاد . فقال لها : أى شىء تُحسنين؟ قالت : أنا مُغنية . فقال لها: غَنِّى . فغنَّت :

لولا الذى حُمِّلتُ من حُبّكم لكان فى إظهاره مَخْرَجُ
أو مَذهبٌ فى الأرض ذو فُسحة أجَلْ ومن حَجَّ له مَذْحج
لكنْ سَبانى منكمُ شادنٌ مُرَبَّبٌ ذو غُنَّةٍ أدعج
أغرُّ مكورٌ هَضيم الحَشَى قد ضاق عنه الحِجْل والدُّمْلج

فطرب طرباً شديداً ، وقال : يا غلام ، أسقنى . فسقاه عشرين قدحاً ، وهو يَستعيدها . ثم قال لها : لمن هذا الشِّعر ؟ فقالت : للحارث بن خالد . فقال : وممّن أخذتِه ؟ قالت : من حُنين . فقال : وأين لقيتِه ؟ قالت : رُبِّيت بالعِراق وكان أهلى يجيئون به فيُطارحنى . فدعا صاحبَه وقال : أذهب فابْتَعها بما بلغتْ ولا تُراجعنى فى ثمنها . ففعل . ولم تَزل حظيّة عنده .

شرب هو ومحمد بن سليمان بجرن

وذُكر أنه فى أيام الدولة العباسيّة خَرج عبدُ الوهاب بن إبراهيم الإمام بن محمد ابن علىّ بن عبد الله بن العبّاس يوماً إلى بعض الدّيارات ، فنزل فيه ، وهو والٍ

على الرَّملة . فسأل صاحب الدَّير : هل نَزل بك أحد من بنى أُمية ؟ قال : نعم ، نزل بى الوليدُ بن يزيد ، ومحمد بن سُليمان بن عبد الملك . قال : فأى شىء صَنعا ؟ قال : شَربا . قال : أين شربا ؟ قال : فى ذلك المَوضِع ، ولقد رأيتُهما شربا فى آنيتهما ، ثم قال أحدهما لصاحبه : هلم نشرب بهذا الجُرن [1] — وأومأ إلى جُرن عظيم من رخام — قال : أفعلُ . فلم يزالا يتعاطيانه بينهما ويَشربان به حتى ثَملا . فقال عبدُ الوهاب لمولًى له أسود: هاته . قال الراوى : فلقد رأيته ، وكان يُوصف بالشدة ، فذهب يحركه فلم يقدر . فقال له الراهب: والله لقد رأيتُهما يتعاطيانه وكُل واحد منهما يملؤه لصاحبه ، فيرفعه ويَشربه غير مكترث .

طلاقه سعدة وهيامه بأختها سلمى

ذُكر أنه كانت تحت الوليد بن يزيد أُم عبد الملك ، واسمها سَعْدة بنت سَعيد ابن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فمرض سَعيد ، وكان ذلك فى حياة يزيد ابن عبد الملك . فأتاه الوليدُ عائداً فدَخل فلَمح سَلْمى بنت سَعيد ، أُختَ زوجته سَعْدة ، فسترها حواضنُها وأختها ، وقامت ففرعتهن طُولاً ، فوقعتْ بقَلب الوليد . فلما مات يزيد طَلَّق أُم عبد الملك زَوجته ، وخَطب سلمى إلى أبيها ، وكانت لها أُخت يقال لها : أُم عثمان، تحت هشام بن عبد الملك ، فبعثت إلى أبيها : أتريد أن تَستَفحل الوليدَ لبناتك، يُطلِّق هذه وينكح هذه — وقيل : الذى بعث بذلك إلى أبيها هشامٌ — فلم يُزوِّجه سعيدٌ وردّه أقبح ردْ . وهَويها الوليدُ ورام السُّلو عنها ، وكان يقول : العَجب لسعيد ! خطبتُ إليه فردَّنى، ولو مات هشام ووَليتُ لزوَّجنى ، وهى طالق ثلاثاً إن تزوجتُها حينئذ ، وإن كنت أهواها .

أشعب بينه وبين سعدة

وقيل : إنه لما طلّق سَعْدة نَدم على ذلك وغَمَّه ، وكان لها من قَلبه محلٌّ ، ولم تحصُل له سلمى ، فاغتمَّ لذلك وجَزع وراسل سَعدة ، وقد كانت تزوَّجت غيرَه ، فلم ينتفع بذلك . فذُكر أنه بَعث إلى أشعب بعدما طلَّق امرأته ، فقال: يا أشعب،

(١) الجرن : حجر منقور يصب فيه الماء فيتوضأ به .

لك عندى عشرة آلاف درهم على أن تبلِّغ رسالتى سَعدة . فقال : أحضر العشرة الآلاف درهم ، حتى أنظر إليها . فأحضرها الوليد . فوضعها أشعبُ على عُنقه وقال: هاتِ رسالتك يا أمير المؤمنين . فقال : قل لها : يقول لك أمير المؤمنين :

أَسَعدةُ هل إليكِ لنا سَبيلُ وهل حتى القيامة مِن تَلاقِى
فأُصبحَ شـامتاً وتقرَّ عَيْنى ويُجْمعَ شَمْلُنا بعـد افتراق

فأتى أشعبُ البابَ ، فأُخبرتْ بمكانه، فأمرت بفُرشٍ لها ففُرشت ، وجلست ، فأَذنت له . فلما دخل أنشدها ما أمره به . فقالت لخدَمها : خُذوا الفاسق. فقال: يا سيّدتى ، إنها بعشرة آلاف درهم . قالت : والله لأقتلنَّك أو تُبلِّغه كما بلَّغتنى. قال : وما تَهبين لى ؟ قالت : بساطى الذى تحتى. قال : قُومى عنه . فقامت عنه ، فطَواه ، ثم قال : هاتى رسالتك ، جُعلتُ فِداك . قالت : قل له :

أَتبْكِى على لُبْنَى وأنتَ تركْتَها فقد ذهبتْ لُبْنى فما أَنت صانِعُ

فأقبل أشعب فدَخل على الوليد ، فقال : إيه . فأنشده البيتَ . فقال : أَوَّهْ ، قتلتَنى يا بن الزانية ! اختَر : إما أن أُدَلِّيكَ على رأسك مُنكَّسا فى بئر ، أو أَرمى بك منكَّساً من فوق القَصْر ، أو أُضرب رأسك بعَمودى هذا ضربةً ، هذا الذى أنا صانع ، فاختر أنت الآن ما أنت صانع . قال : ما كنتَ لتَفعل شيئاً من ذلك. قال: ولِمَ يا بن الزَّانيـه ؟ قال : ما كُنتَ لتُعذِّب عينَين نظرتا إلى سَعدة . قال : صدقت والله ، أَفلتَّ والله بهذا منّى يا بن الزَّانية ، اُخرُج عنِّى .

حيلته لرؤية سلمى وشعره فى ذلك

وذُكر أن الوليد بن يزيد خَرج يوماً يتوقّع أن يرى سَلمى أُخت سَعـدة . فلَقيه زيّات معه حِمار عليه زَيت . فقال : هل لك أن تأخُذ فَرسى هذا وتُعطينى حِمارك وما عليه ، وتأخذ ثيابى وتُعطينى ثيابك ؟ ففعل الزيّات ذلك . وجاء الوليدُ وعليه الثياب ، و بين يديه الحمارَ يسوقه متنكِّراً ، حتى دخل قصر سعيد ، فنادى :

مَن يشترى الزيتَ ؟ فاطَّلع بعضُ الجوارى فرأينه ،فدخَلْن إلى سَلْمى فقُلن لها : إن بالباب زيّاتاً أشبه الناس بالوليد ، فاُخرجى فانظُرى إليه . فخرجت فرأته ورآها، فرجعت القَهْقرى وقالت : هو والله الفاسق الوليد ! وقد رآنى . فقلن له : لاحاجة بنا إلى زيتك. فانصرف الوليدُ وقال :

إنى أبصرتُ [1] شخصاً حسنَ الوجه مليحِ
ولباسِى ثوب [2] شيخ من عَباء ومُسوح
وأبيع الزَّيت بيعاً خاسراً غيرَ رَبيح

وقال أيضاً :

فما مِسْكٌ يُعَلُّ بزَنْجبيلٍ ولا عَسلٌ بألبان اللِّقاحِ
بأَشهَى من مُجاجة ريقِ سَلْمى ولا مافى الزِّقاق من القَراح
ولا والله ما أَنسى حياتى وَثاقَ الباب دُونى واطِّراحى

فلما ولى الخِلافة أَحضر المُغنين ، فحضَروه ، وفيهم مَعبد وابن عائشة وذووهما ، فقال لابن عائشة : يا محمد ، إنْ غنَّيتنى صوتَيْن فى نفسى فلك عندى مائة ألف درهم . فغنّاه :

* إنى أبصرتُ شخصاً *

وغنّاه :

* فما مِسك يُعلّ بزَنجبيل * الأبيات

فقال الوليد : والله ما عدوتَ ما فى نفسى ، وأمر له بمائة ألف درهم وألطاف وخِلع ، وأمر لسائر المُغنين بدون ذلك .

---

(١) فى بعض أصول الأغانى : « شيخا » مكان « شخصاً »

(٢) فى الأصل : « سوء » مكان « شيخ » .

زواجه بسلمى وموتها وشعره فى رثائها

وذُكر أنه لما طال بالوليد ما به ، كتب إلى أبيها سعيد :

أبا عُثمان هل لك فى صَنيع ... تُصيب الرُّشدَ فى صلتى هُدِيتَا
فأشكر منك ما تُسدى[1] وتُحيى ... أبا عثمان مَيِّتةً ومَيْتا

فلم يُجبه إلى ذلك حتى ولى الخلافة ، فلما وليها زوَّجه إياها . فلم تَلبث معه إلا مدة يسيرة حتى ماتت . وقال فى ليلةِ زفافها إليه :

خفَّ من دار جِيرتى ... يا بن داود أُنْسُها

وهى طويلة ، يقول فيها :

أوَلا تخرج العَرو ... س فقد طال حَبْسُها
قد بدا الصبحُ أو دنا ... وهْى لم يُقْض لُبْسُها
بَرزتْ كالهلال فى ... ليلةٍ غاب نَحْسُها
بين خَمس نَواعمٍ ... أكرمُ الجِنس[2] جِنْسها

وقيل :

كانت مدة مُقامها عنده أربعين يوماً ، ثم ماتت . فقال يرثيها :

ألمّا تَعلما سَلْمى أقامت ... مُضَمَّنةً من الصَّحراء لحدَا
لعمرك يا وليدُ لقد أجَنّوا ... بها حَسَباً ومكرُمة ومجْدا
ووجهاً كان يقصُر عن مداه ... شُعاع الشَّمس أهلاً أن يُفدَّى
فلم أرَ ميِّتاً أبكَى[3] لِعَيْنٍ ... وأكثر جازعاً وأجلَّ فَقدا
وأجدر أن تُرى ملكا[4] لديه ... يُريك جَلادةً ويُسِرّ وَجْدا

(١) فى الأصل : « ماتهدى » مكان « ما تسدى » .
(٢) فى الأغانى : « « كواعب * أكرم الخمس » .
(٣) فى الأصل : « لعينى » .
(٤) فى الأغانى : « وأجدر أن تكون لديه ملكا » .

شعره فى سلمى

وللوليد بن يزيد فى سَلْمى هذه أشعار كثيرة ، منها قوله :

أسقِنى يابنَ سَالمٍ قد أنارَا ... كوكبُ الصُّبح وانجلى واستنارَا
أسقِنى من سُلاف ريق سُليمى ... واسق هذا النَّديمَ كأساً عُقارا

وقوله :

قد تمنَّى معشرٌ إذ أُطْربوا ... من عُقَار وسَوَامٍ وذَهَبْ
ثم قالوا لى تمنَّه [1] نَسْتمع ... كيف تَنْحو فى الأَمانى والطَّلَب
فتمنّيتُ سُليمى إنها ... بنت عمّى من لَهامِيم العَرَب

وحكى أبو الفَرَج عن الوليد أنواعاً من السّخف والتهتّك، فكرهتُ ذكره لفرط قُبحه ، والغالب على الظن عدم صحة أكثره .

من تهتكه

وحكى أنه واقع جارية من جواريه وهو سكران، فلما فَرَغ منها آذَنه المُؤذن بالصلاة ، فحلف ألا يُصلى بالناس غيرُها . فخرجت وهى متلثّمة فصلّت بالناس .

مع ابن الزندبوذ

وذكر أنه بعث الوليد بن يزيد إلى شراعة بن الزَّندبوذ . [2] فلما قَدِم عليه قال : يا شُراعة ، إنى لم أُحضرك لأسألك عن العلم ولا لأستفتيك فى الفقه ، ولا لتُحدثنى ولا لتُقرئنى القرآن . فقال له شراعة : لو سألتنى عن هذا لوجدتَنى فيه حماراً . قال : كيف عِلمك بالفتوة ؟ قال : أبن بجدتها ، وعلى الخَبير بها سقطت ، فسَل عما شئت . قال : كيف عِلمك بالأشربة ؟ قال : يسألنى أمير المؤمنين عما أَحبّ . قال : ما قولُك فى الماء ؟ قال : هو الحياة ويَشركنى فيه الحمار . قال : فاللبن ؟ قال : ما رأيته قط إلا ذكرت أمى فاستحييت . قال : فالخمر ؟ قال : تلك السارّة البارّة ، وشراب أهل الجنة . قال : لله دَرُّك ! قال : فأى شىء أحسن ما يُشرب عليه !

(١) فى الأغانى : « تمن واستمع » .
(٢) كان من المجان الندماء .

قال : عجبت لمن قدَر أن يشرب على وجه السماء فى كِنٍّ من القُرّ والحرّ كيف يختار عليها شيئاً !

هو والمصحف

وحكى أبو الفرج عنه ما لو صَحّ كان محكوماً بكُفره . وغالب ظَنِّى عدمُ صحته، لكنّه مَشهور عند أهل الأخبار ، وهو :

أن الوليد دعا ذاتَ ليلة بمُصْحف ، فلما فتحه صادف ورقةً فيها :

(واسْتَفْتَحوا وخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيد . مِنْ ورائه جَهنّم ويُسْقَى مِنْ مَاء صديد .)

فقال : أسجعاً ! سَجْعا ! علِّقوه . ثم أَخذ القوس والنَّبل فرماه حتى مَزّقه ، ثم قال :

أتُوعِدُ كُلَّ جبّارٍ عَنيد ... فها أنا ذاك جبَّار عَنِيدُ

إذا ما جئتَ(١) ربَّك يومَ حَشْرٍ ... فقُل يا ربّ (٢) مَزّقنى الوَليد

وما لبث بعد ذلك إلّا قليلا حتى قُتل .

هو والقاسم ابن الطويل

وذُكر أن الوليد بن يزيد كان يُنادم رجلاً يقال له : القاسم بن الطويل العِبادىّ ، وكان أديباً ظَريفاً شاعراً ، فكان لا يَصبر عنه . فغنّاه معبدٌ ذاتَ يوم بشعر عدىّ بن زيد العِبادى :

بَكر العاذلون فى وَضَح الصُّبْـ ... ـح يقولون لى ألاَ تَستفيقُ

فاستحسنه الوليد وأُعجب به وطَرب عليه ، وجَعل يَشرب إلى أن غَلب عليه السكر ، فنام فى موضعه ، وانصرف ابنُ الطويل . فلما أفاق الوليدُ سأل عنه ، فعَرف خَبر انصرافه . فغضب وقال وهو سكران لغلام كان واقفاً على رأسه ،

(١) فى رواية : « لا قيت » .

(٢) فى رواية : « لله » .

يقال له : سَبْرة : ائتنى برأسه . فمضَى الغــلامُ حتى ضَرب عُنقه وأتاه برأسه . فجعله فى طَسْت بين يديه . فلما رآه أنـكره ، وسأل عن الخبر فعرّفه ، فاسترجع وندِمَ على ما فَرط منه ، وجعل يُقَلِّب الرأس بيديه ويَبكى ، ثم قال يرثيه :

عَيْنَىَّ للحـدَث الجليل جُودَا بأربعةٍ (١) هُمُولِ
جُـــودا بدَمع إنّه يَشفى الفُؤادَ من الغَليل
لله قــبرٌ ضُمِّنت فيـه عظامُ ابن الطَّويل
ماذا تَضمَّن إذ ثَوى فيه من اللّبّ الأصيل
قد كنتُ آوى مِن هوا كَ إلى ذُرَى كَهْفٍ ظَليل
أصبحتُ بعدك واحــداً فرداً بمَدْرجة السُّيول

ثم دخل على جواريه فقال : ما أبالى متى جاءنى الموت بعد ابن الطويل . فيقال : إنه لم يَعش بعده إلا مُديدة ، ثم قُتل .

ذكر مقتل الوليد بن يزيد

يزيد الناقص والعباس بن الوليد فى شأنه

لما أعلن الوليد بالفِسق والفُجور ، وبالغ فى التهتّك وزاد على من تقدّمه فى ذلك ، وبايع لولديه عُثمان والحكم بولاية العهد بعده ، ولم يبلغا الحُلُم ، وبَسط المكروه على أولاد عمّيه : الوليد ، وهشام ، ابنى عبد الملك ، وأفرط فى ضَلاله وغيّه ، ملّه الناسُ عامةً ، وبنو أمية خاصة ، وكرهوا دولته وسئموا أيامَه ، فمشى بعضُهم إلى بعض فى خَلعه . وكان أقواهم فى ذلك يزيدُ الناقص بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، فمشى إلى أخيه العبّاس بن الوليد ، وكان امرأ صدْق ، ولم يكن فى بنى أمية مثله ، فشكا إليه مايجرى على الناس من الوليد . فقال له : يا أخى ، إن الناس قد ملّوا بنى مروان ، فإن مَشى بعضكم فى أمر بعض أُكلتُم ، وللرجُل أجلٌ

(١) يعنى : اللحاظين والموقين .

لا بُد أن يبلُغَه ، قالَ نتظره . فخرج من عنده ومَشى إلى غيره ، فبايعه جماعةٌ من اليمانية الوُجوه . فعاد إلى أخيه العبّاس وأعاد عليه القول ، وعَرَّض له بأنه قد دُعِى له بالخلافة . فقال : والله لولا أنى لا آمنه عليك ، لِمَا أعلمه من تَخليطه [1] ، لوجّهتُك الساعةَ إليه مشدوداً ، فنشدتُك الله ألاّ تَسعى فى شىء من هذا . فانصرف من عنده وجعل يدعو الناسَ إلى نفسه .

وذُكر أن يزيد بن الوليد الناقص دخل هو وأخوه بِشْر على أخيهما العبّاس ابن الوليد ، وأخذا يَقعان فى الوليد ويُحرِّضان أخاهما العبّاس فى خَلعه ، فأبى ذلك عليهما وقال : يا بنى مَروان ، أظن أن الله جلّ وعزّ قد أذن فى هلاكم ، ثم قال :

إنِّى أعيذكُمُ بالله من فِتَنٍ ... مثلِ الجبالِ تَسامَى ثم تَندفِعُ
إنَّ البريةَ قد مَلَّت سياستَكم ... فاُستمسكوا بعَمودِ الدِّينِ وارْتدعوا
لا تُلْحِمُنّ [2] ذئابَ الناسِ أنفُسَكم ... إن الذِّئاب إذا ما أُلْحِمت رَتَعوا
لا تَبْقُرُن بأيديكم بُطونَكُمُ ... فثَمّ لا حِيلةٌ [3] تُغْنِى ولا جَزَع

اجتماع الأمر ليزيد الناقص

فلما اُستجمع ليزيد الناقص أمرُه ، وهو مُتَبدٍّ ، أقبل إلى دمشق ، و بين مكانه الذى كان فيه و بين دِمشق أربع ليالٍ ، فأقبل متنكِّراً فى سَبعة أنفُس على حُمُر ، وقد بايع له أكثرُ أهل دمشق و بايع له أهلُ المِزَّة .

فذكر مولًى لعبّاد بن زِياد ، قال : إنى لَبِجَرُود ، و بين جرود ودمشق مرحلة ، إذ طلع علينا سبعةٌ مُعتمُّون على حُمر ، فنزلوا ، وفيهم رجلٌ طويل جَسيم ، فَرمى بنفسه فنام ، فألقوا عليه ثو باً ، وقالوا لى : هل عندك شىء نَشْتريه

(١) فى الأغانى : « لا آمنه عليك من تحامله » .
(٢) أى لا تطعمن لحمكم ذئاب الناس .
(٣) فى الأغانى : « لا فدية » .

من الطعام ؟ فقلت : أما بيعٌ فلا ، وعندى من قِراكم ما يُشبعكم . قالوا : عجِّله . فذبحتُ لهم دَجاجاً وفِراخاً ، وأتيتهم بما حَضر من عَسل وسَمن ، وقُلت لهم : أَيقظوا صاحبَكم للغداء . فقالوا : هو محمومٌ لا يأكل . فسفَروا للغداء ، فعرفتُ بعضَهم ، وسفَر النائم ، فإذا هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فعرفتُه ، فلم يُكلِّمنى . ومضوا فى نَفر من أصحابهم مُشاةٍ إلى معاوية بن مَصاد ، وهو بالمِزّة ، وبينها وبين دمشق مِيل ، فأصابهم مطرٌ شديد ، فأتوا منزلَ معاوية بن مَصاد ، فضربوا بابَه وقالوا : يزيد بن الوليد . فدخلوا . فقال معاوية : الفِراشَ ، ادخل أصلحك الله . فقال : فى رجلى طين وأخاف أن أُفسد عليك بساطَك . فقال : ما تُريدنى عليه أفسدُ . فمشى على البِساط وجلس على الفراش . ثم كلّم معاويةَ بن مَصاد ، فبايعه . ثم خرج يزيد إلى دمشق فدخلها ، ونَزل دار ثابت بن سُليمان الحَسنىّ ، وعلى دمشق ، من قبل الوليد بن يزيد عبدُ الملك ، محمدُ بن الحجاج بن يُوسف ، وكان خرج منها خوفاً من الوباء فنزل قَطنَاً ، واستخلف ابنه على دمشق . وعلى شرْطته أبو العاج كثيرُ بن عبد الله السُّلمى . وأجمع يزيد على الظُّهور وقد تمأمره . وقيل لعامل دمشق : إن يزيد خارج فلم يُصدق . وأرسل يزيد إلى أصحابه بين المَغرب والعشاء ، من ليلة الجمعة من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة ، فكَمنوا فى ميضأة عند باب الفَراديس ، (١) حتى إذا أُذِّنوا العَتَمةَ دخلوا المسجد على الناس فصلُّوا ، وللمسجد حَرس قد وُكِّلُوا بإخراج الناس من المسجد بالليل ، فإذا خرج الناسُ خرج الحرسُ وأَغلق صاحب المسجد الأبوابَ ، ودخل الدارَ من باب المَقصورة ، فدَفع المفاتيح إلى من يحفظُها ويخرج . فلما صلّى الناسُ العتمةَ صاح الحرسُ بالناس فخرجوا ، وتباطأ أصحاب يزيد الناقص ، فجعلوا يُخرجونهم من باب ويَدخلون من باب ، حتى لم يَبق فى المسجد إلا الحرسُ وأصحاب يزيد ، فأخذوا

(١) من أبواب دمشق .

الحرس. ومَضى يزيد بن عَنْبسة إلى يزيد الناقص فأخبره وأخذ بيده وقال: قُم يا أمير المؤمنين وأبشر بعون الله تعالى ونَصره. فأَقبل فى اثنى عشر رجلاً. فلما كانوا عند سُوق القَمح لحقهم فيها مائتا رجل من أصحابهم، فمضَوْا حتى دخلوا المسجد، وأتوا باب المقصورة فقالوا: نحن رسل الوليد. ففَتح لهم الخادمُ الباب، فدخلوا وأخذوا الخادم، فإذا أبو العاج خليفة عامل البلد سكران، فأَخذوه وأخـذوا خُزَّان بيت المال وصاحب البريد، وأَرسل إلى كل من كان يَحذره فأَخذه، وأرسل من ليلته إلى محمد بن عُبيدة، مولى سَعيد بن العاص، وهو والى بَعلبك، وإلى عبد الملك بن محمد، عامل دمشق، فأَخذهما، وبَعث أصحـابه إلى الخَشبيّة [1] فأَتوه. وقال للبوابين: لا تفتحوا الباب غُدوة إلا لمن أَخبركم بشعار كذا وكذا — للشعار الذى بينهم — فتركوا الأبواب فى السلاسل. وكان فى المَسجد سِلاح كثير قَدِم به سليمان بن هشام من الجزيرة، ولم يكن الخُزّان قَبَضوه، فأَخذوه وأصبحوا، وقد جاء أهلُ المِزّة مع حُريث بن أبى الجَهم، فما انتصف النهار حتى بايع الناسُ يزيدَ، وهو يتمثّل بقول النابغة:

إذا استُنْزِلُوا عنهنّ للطَّعن أَرقلوا إلى الموت إرقالَ الجمال المَصاعِب

فجعل أصحابهُ يتعجّبون ويقولون: انظروا إلى هذا، كان قُبيل الصبح يُسبِّح، وهو الآن يُنشد الشعر. ثم أمر يزيد الناقص ابنَ عمّه عبدَ العزيز بن الحجّاج ابن عبد الملك بن مروان، فوقف بباب الجابية فنادى: ألا من كان له عطاء فَلْيأت إلى عطائه، ومن لم يكن له عطاء فله ألف دِرهم معونة. فبايع له الناسُ، وأَمر بالعطاء. وندَب الناسَ إلى قتال الوليد بن يزيد مع عَبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك، ونَادى مُناديه: من سارع مع عبد العزيز فله ألفان. فانتدب ألفا رجلٍ. فأَعطاهم

(١) أصحاب المختار بن أبى عبيد.

وقال : موعدكم ذَنَبةُ [١] . فوافاها ألف ومائتا رجل . فقال : ميعادكم مَصْنعة بالبريّة ، وهى لبنى عبد العزيز بن الوليد . فوافاه ثمانمائة رجل . فسار فوافاهم ثَقَل [٢] الوليد فأخذوه . وتقدّم عبد العزيز بن الحجّاج فيمن معه حتى نزلوا قريباً من الوليد وهو بقصره ، بموضع يقال له : البَحْراء ، بالبرية . فقال الوليد : أخرجوا لى سريراً . فأخرجوه ، فصعد عليه ، وأتاه خبرُ [٣] العبّاس بن الوليد : إنى أجيئك . وأُتى الوليد بفرَسين يقال لهما : الذائد والسِّنْدىّ . وقال : أعلىّ يَتواثب الرجالُ وأنا أثب على الأسد وأعضّ [٤] الأفاعى . وهم يَنتظرون العبّاس أن يأتيهم . فلم يكن بينهم كبير قتال . فقُتل عثمان الخَشبىّ [٥] . وكان من أولاد الخشبية الذين كانوا مع المُختار . و بلغ عبدَ العزيز بن الحجّاج أن العبّاس بن الوليد يأتى الوليد ، فأرسل منصورَ بن جُمْهور فى جَريدة خَيل ، فقال : إنكم تلقون العبّاس بن الوليد ، ومعه بنوه بالشِّعب ، فخُذوه . فخرج منصورٌ فى تلك الخيل وتقدّموا إلى الشِّعب ، فإذا العبّاس ومعه ثلاثون قد تقدّموا أصحابَه . فقالوا له : أعدل إلى عبد العزيز . فشتَمهم . فقال له منصور : والله لئن تقدّمت لأَنفُذَن حَصينك [٦] بالرُّمح . فقال : إنا لله ! فأقبلوا به يسوقونه إلى عبد العزيز . فقال له عبد العزيز : بايعْ ليزيد . فبايع ووقف ، ونصبتْ راية ، وقالوا : هذا العبّاس قد بايع . ونادى مُنادى عبد العزيز : مَن لَحق بالعبّاس بن الوليد فهو آمِن . فقال العبّاس : خُدعة من خُدع الشيطان . إنّا لله ! هَلك والله بنو مَروان : فتفرّق الناس عن الوليد وأتوا العبّاس . وظَاهر الوليدُ فى

---

(١) من أعمال دمشق .

(٢) الثقل : المتاع .

(٣) فى الأصل : « رسول » .

(٤) فى الطبرى : « أتخصر » . والتخصر : الإمساك بالمخصرة . وهى العصا . يريد أنه يقبض عليها بيديه كما يقبض على المخصرة .

(٥) فى الأصل : « يزيد بن عثمان » . « والتصويب من الطبرى » .

(٦) يريد : درعه .

درعين وقاتلهم ، ونادى الوليد : من جاء برأسٍ فله خمسمائة درهم . فجاء جماعةٌ بعدّة رءوس ، فقال : اكتبوا أسماءهم . فقال له رجلٌ من مواليه : ليس هذا يا أمير المؤمنين يوماً يُعمل [1] فيه بنسيئة . وناداهم رجالٌ : اقتُلوا اللُّوطيَّ ، قِتْلَة قوم لُوط . فرمَوْه بالحجارة . فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق بابه ، وقال :

دَعُوا لى سُلَيْمى والطِّلاء وقَيْنةً ... وكأْساً ألاَ حَسْبى بذلك مالاَ

إذا ما صَفا عيشٌ برَمْلةِ عالجٍ ... وعانقتُ سَلمى لا أُريد بِدالا

خُذوا مُلْككم لاثبّت اللهُ مُلْككم ... ثباتاً يُساوى ماحييتُ عِقالا

ثم قال لعُمر الوادى : يا جامع لذّتى ، غنِّى بهذا الشِّعر . فغنّاه به . وأحاط الجُند بالقصر ، فقال لهم الوليد من وراء الباب : أما منكم رجلٌ شريفٌ له حَسب وحياءٌ أُكلِّمه ! فقال له يزيد بن عنبسة السَّكْسكيّ : كلِّمني . فقال الوليدُ : ياأخا السَّكاسك ، ما تَنْقمون منِّى ؟ ألم أزد فى أعطياتكم وأعطية فُقرائكم ، وأخدمتُ زَمْناكم ، ورَفعت [2] عنكم المُؤن ؟ قال : ما نَنْقم عليك فى أنفسنا شيئاً ، ولكن نَنقم عليك انتهاكَ ما حرّم الله ، وشُرب الخمور ، ونِكاح أُمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله عز وجل . فقال : حَسْبك يا أخا السَّكاسك ، فَلعمرى لقد أغرقتَ وأكثرتَ ، وإن فيما أحل الله سبحانه لسعةً عمّا ذكرت . ورجع إلى الدار فجلس وأخذ المُصحف وقال : يوم كيوم عُثمان . ونَشر المصحف يقرأ . فعلَوا الحائط ، وكان أول مَن علاه يزيد بن عنبسةَ . فنزل وسيفُ الوليد إلى جَنبه . فقال له يزيد : نَحِّ سيفَك . فقال له الوليد : لو أردتُ السيفَ لكانت لى ولك حالٌ غير هذه . فأخذ بيده وهو يريد أن يُدخله بيتاً ويُؤامِرَ فيه . فنزل من الحائط عشرةٌ ، منهم : منصُور بن جُمهور ، وعبد الرحمن بن رواحة [3] مولى يزيد بن عبد

(١) فى الأغانى : « يعامل » .

(٢) فى الأغانى : « دفعت » .

(٣) فى الطبرى : « عبد الرحمن بن عجلان » . وفى الأغانى : « عبد الرحمن وقيس مولى ... الخ » .

الملك ، والسرىّ بن زياد بن أبى كبشة . فضربه عبد الرحمن بن رواحة على رأسه ضربةً ، وضَربه السرىُّ بن زياد على وجهه ضربة ، وجرُّوه بين خمسة ليُخرجوه . فصاحت امرأة كانت فى الدار ، فكفُّوا عنه فلم يخرجوه . واحتز رأسه أبو عِلاقة القُضاعى ، وخاط الضربة التى فى وجهه بالعَقَب [1] . وقدم بالرأس على يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وهو بدمشق ، روْح بن مُقبل ، فقال : أبشر يا أمير المُؤمنين بقَتل الفاسق . فأحسن صلته .

تمثيلهم به بعد موته

ولما قُتل الوليدُ جعل أبو مِحْجن ، مولى خالد القَسرىّ ، يُدخل سيفه فى إست الوليد وهو مَقتول . وجاء يزيد بن خالد القَسرىّ فضَربه تسع ضَربات وهو مقتول .

عمر الوادى ساعة مقتله

وحكى عُمر الوادى قال :

كنت أغنِّى الوليد :

كذبتْك عينُك [2] أم رأيتَ بواسطٍ غَلَس الظلامِ من الرَّباب خَيالاَ

فما أتممتُ الصوت حتى رأيتُ رأسه فارق جَسده .

ابنا الوليد ويزيد ابن هشام

قيل :

وكان عثمان ، والحكم ، أبنا الوليد بن يزيد ، قد بايعهما الوليدُ بالعهد بعده . فلما قُتل الوليد وأفضت الخلافةُ إلى ابن عمّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، أخذهما فحبَسهما فى الخَضراء [3] . فدَخل عليهما يزيد بن هشام بن عبد الملك ، المَعروف بالأقمّ ، فجعل يشتُم أباهما الوليدَ ، وكان قد ضَربه وحلَقه . فبكى الحكمُ . فقال له أخوه عثمان : اُسكت يا أخى ، وأقبل على يزيد فقال : أتشتُم أبى ! قال : نعم . قال :

(١) العقب : العصب تعمل منه الأوتار .

(٢) فى الأغانى : « نفسك » . (٣) لعله : موضع بالشام .

لكنى لا أشتُم عمّى هشاماً ، ووالله لو كنتَ من بني مَروان ما شتمتَ أحداً منهم . فانظُر إلى وجهك ، فإن كنتَ رأيت حَكَمِيًّا [1] يُشبهك فأنت منهم . لا والله ، ما فى الأرض حَكَمِىّ يُشبهك .

الرشيد وابن للغمر ابن يزيد

وذُكر أن أبناً للغَمْر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرَّشيد ، فقال له : ممّن أنت ؟ قال : من قُريش . قال : من أيِّها ؟ فأمسك . قال : قل وأنت آمن ، ولو أنك مَروانى . قال : أنا أبن الغَمر بن يزيد . قال : رَحم الله عمَّك ولَعن يزيدَ النَّاقص وقَتلةَ عمّك جميعاً ، فإنهم قتلوا خليفة مُجْمَعاً عليه ! أرفع إلىّ حوائجك ، فقَضاها .

المهدى وابن علاثة فى شأن الوليد ابن يزيد

وذكر شَبيب بن شَيْبَة قال :

كنّا جلوساً عند المهدىّ ، فذكروا الوليد بن يزيد ، فقال المهدى : إنى لأحسبه زنديقاً . فقال ابن عُلاثة الفقيه : يا أمير المُؤمنين ، الله أعظم وأجلُّ من أن يولِّى خلافةَ النبوّة وأمرَ الأُمة من لا يُؤمِن به ، لقد أخبرنى من كان يَشهده فى مَلاعبه وشُربه عنه بمُروءة فى طهارته وصَلاته ، وحدّثنى أنه كان إذا حضرت الصلاةُ يَطرح ثياباً كانت عليه من مُطَيَّبةٍ ومُصبَّغة ويتوضأ فيُحسن الوضوء ، ويُؤتى بثياب بِيض نِظاف من ثياب الخلافة ، فيصلِّى فيها أحسن صلاة ، وأحسن سكوت وسكون ورُكوع وسُجود ، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثِّياب التى كانت عليه قبل ذلك ، ثم يعود إلى شربه ولَهوه ؛ أفهذه أفعالُ من لا يُؤمن بالله تعالى ؟ فقال المهدى : صدقتَ ، بارك الله عليك يا بن عُلاثة .

تعقيب لابن واصل فى زوال ملك بنى أمية

قلت : إن مُلك بنى أُمية أُضطرب بقتل الوليد ، وإن يزيد لما بُويع له لم يلبث فى الخلافة إلاستة أشهر . وكان مروان بالجزيرة ، فعَصى عليه ولم يُبايع له . وتُوفّى يزيد فى هذه السنة — أعنى سنة سبع وعشرين ومائة — وكان يلقّب بالناقص ،

(١) نسبة إلى حكم بن أبى العاص والد مروان ، رأس هذه الأسرة .

لأنه نَقص الجند أعطياتهم فلُقِّب بذلك . و بُويع بالخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد ، وكان ضعيفاً ، تارةً يُسلَّم عليه بالخلافة ، وتارةً بالإمرة، وتارةً باسمه . فمكث ثلاثة أشهر والدُّنيا مضطربة عليه . وقَصده مروان بن محمد الملقَّب بالحمار، و بعث إبراهيمُ ومَن معه إلى الغُلامَيْن ــ ولدَى الوليد ــ مَن قتلهما فى الحبس . وفى ذلك يقول ابن أبى عَقِب ، صاحب الملاحم :

إذا قُتل الخَلْف المُديم لِسُكره ... بقَفر من البَخْراء[1] أُسّس فى الرَّمْلِ
وسِيق بلا جُرْمٍ إلى الحتْف والرَّدَى ... بُنيّاه حتى يُذْبحا مذبح[2] السَّخْل
فويح[3] بنى مَروان مما أصابهم ... بأيدى بنى العبّاس بالأسر والقَتل

ودخل مروان دمشق فبُويع له بالخلافة ، وخلع إبراهيم ، و بقى إبراهيم إلى وقعة الزّاب فغَرق فى الزاب لما انهزم مروان من بنى العبّاس . وزال مُلك بنى أُمية ، وجرى عليهم من بنى العبّاس ما تقدم ذِكره .

* * *

عمر الوادى

ثم ذكر أبو الفرج عُمر بن داود الوادى ، وهو من موالى عمرو بن عثمان بن عفّان . ونِسبته إلى وادى القُرى . وكان مُختصًّا بالوليد بن يزيد ، ولم يزل يُطربه و يُغنّيه إلى أن قُتل .

أبو كامل المغنى

ثم ذكر أبا كامل المُغنِّى. واسمُه الغُزَيِّل ، مولى الوليد بن يزيد . وكان مُغنياً مُحسناً وطيِّباً مُضحكاً . لم يُسمع له بخَبر بعد بنى أُمية . ولعله مات فى أيامهم ، أوقُتل معهم . ولم أختَر لهذين خبراً فأذكره .

---

(١) البخراء : بالشام .

(٢) السخل : جمع سخلة ، وهى ولد الشاة ، من المعز والضأن ، ذكراً كان أو أنثى .

(٣) فى الأغانى : « فويل » .